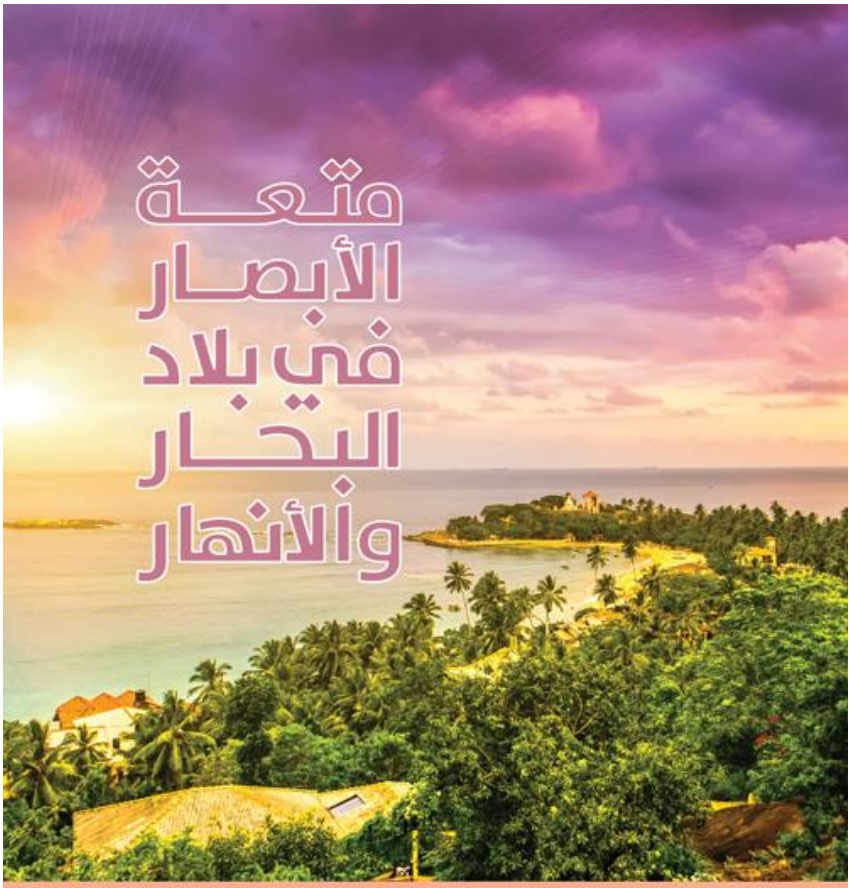

سعد بن عبدالله الغريبي

كتاب
المجلة
العربية
289

سعد عبدالله الغريبي

متعة الأبصار

في

بلاد البحار والأنهار

كتاب المجلة العربية

289

رئيس التحرير
محمد بن عبدالله السيف

الرياض. طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين).شارع المنفلوطي
هاتف: 4767345.4777943 فاكس: 4766464
ص.ب 5973 الرياض 11432 | المملكة العربية السعودية

المجلة العربية، 1442هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الغريبي، سعد عبدالله متعة الأبصار في بلاد البحار والأنهار. / سعد عبدالله الغريبي.- الرياض،
1442هـ
130ص؛ 14×21سم.- (كتاب المجلة العربية ؛ 289)
ردمك: 0-02-8320-603-978
1 - الرحلات 2 - سريلانكا - وصف ورحلات 3 - أوزبكستان - وصف ورحلات أ.العنوا
ب.السلسلة
ديوي 4, 910 2132 / 1442

رقم الإيداع: 2132 / 1442
ردمك: 0-02-8320-603-978

علامات الطريق

قبل الانطلاق	7
الرحلة الأولى: سيرلانكا	9
الرحلة الثانية: فيتنام	45
الرحلة الثالثة: أوزبكستان	87
تعريف بالمؤلف	125

قبل الانطلاق

عثرت يوما ما على مقولة مترجمة تقول: "السفر هو الشيء الوحيد الذي تشتريه ليجعلك أغنى". ووجدت في هذه المقولة تفسيرا لما أشعر به في كل مرة أعود فيها من سفر. لم أحس يوما ما بأن ما دفعته لرحلة من رحلاتي كان دون عائد.. صحيح أن العائد يختلف في كل مرة، فمرة يكون صحيا حين أعود أكثر نشاطا وحيوية، وتارة يكون نفسيا عندما أعود أكثر راحة وأصفى مزاجا. وأحيانا يكون العائد ثقافيا عندما أرجع محملا بما رسخ في ذهني من حياة شعوب خالطتُها وعايشتها وشاهدتها عن قرب..

في هذا الكتاب أعرض لثلاث رحلات ذوات تواريخ متباينة.. فأما الرحلة الأولى إلى سيرلانكا فكانت في عام 2008 أي قبل صدور كتابي "من سحر المشرق وفن المغرب" الذي نشره نادي الرياض الأدبي بالتعاون مع المركز الثقافي العربي عام 2013 وضَمَّ رحلاتي إلى الصين وما جاورها وشبه القارة الهندية وجزءا من المملكة المغربية.

فما الذي جعلني أستعيد رحلتي إلى سيرلانكا وقد قمت قبل ذلك برحلات كثيرة لم أسجل منها شيئا غير مقالات قصيرة لا تعدو كونها خواطر وانطباعات، أو تسجيلا لمواقف طريفة؟

السبب الأول يعود إلى أن رحلة سيرلانكا كانت بهدف الاستطلاع والاستكشاف أكثر منها للاستجمام كما في رحلاتي السابقات. والسبب الثاني أن سيرلانكا ساحرة.. فقد سحرتني بجمالها الذي لم أتوقعه، وبأمنها وبطيبة أهلها وبتوافر سبل الراحة لزائريها، فهي تستحق الكتابة عنها كما تستحق زيارتها. والسبب الثالث أن زيارتي الأولى لسيرلانكا في عام 2008 عززتْها زياراتٌ أخرى جعلتها حاضرة في ذهني دائما.

الرحلة الثانية التي يضمها هذا الكتاب هي رحلتي لفيتنام - وكانت في عام 2013 - بدأتُ في تسجيل أجزاء منها في أثناء وجودي على أرضها، ونشرت صورا ومذكرات عنها في وسائل التواصل الاجتماعي (في

الفيسبوك خاصة). ويعود حرصي على نشر ما كتبت عن فيتنام لكونها أنموذجا لإصرار الشعب على الحياة؛ فضلا عن اعتقادي أنها ما زالت بكرا على السائح العربي والسعودي خاصة.

أما الجزء الثالث من هذا الكتاب - الذي جعلته للرحلة الثالثة إلى أوزبكستان وكانت في عام 2018 - فقد كتبته تعبيرا عن سروري بتحقق حلمي الذي ظللت أنتظر تحقيقه سنوات. فقد لازمني شغف بمشاهدة بلاد المسلمين - أحفاد البخاري وابن سيناء والترمذي والبيروني وغيرهم - الذين قرأت مأساتهم في وجوههم قبل أن أقرأها في الكتب المطبوعة. لقد عشت طفولتي وشرخا من شبابي في مدينة الطائف، وزاملت عددا من أبناء (تركستان) في المرحلتين الإعدادية والثانوية، وحكوا لي عن الدب الروسي الذي مزق أرضهم إلى جمهوريات منفصلة، ورووا لي قصة لجوء آبائهم إلى بلادنا - مهبط الوحي وملتقى المسلمين - قبل أن أقرأ رواية نجيب الكيلاني (ليالي تركستان) التي زادتني شوقا إلى هذه البلاد وأهلها.

وبعد، أخي القارئ الكريم: هذا كتابي بين يديك، فإن وجدتَ فيه المتعة والفائدة - إحداهما أو كليهما - فهذا غاية ما أصبو إليه.. كما أرجو أن يجد فيه المهتمون بأدب الرحلة لبنة تضاف إلى صرح أدب الرحلة الذي أراه يعلو يوما بعد يوم.

ولله الحمد من قبل ومن بعد..

سعد بن عبدالله الغريبي

الرياض 1441/8/9

الموافق 2020/4/2

الرحلة الأولى

سيرلانكا

مدخل

سيرلانكا وسرنديب وسيلان ثلاثة أسماء أطلقت على هذه الجزيرة القابعة جنوبي الهند في نقطة التقاء خليج البنغال وبحر العرب بالمحيط الهندي.

لهذه الجزيرة تاريخ طويل مع محاولة المستعمرين إحكام قبضتهم عليها، ولها تاريخ طويل في الكفاح من أجل الحرية والاستقلال. تناوب على احتلالها كل من البرتغاليين والهولنديين، ثم احتلها البريطانيون في نهاية القرن الثامن عشر، واتخذها الحلفاء قاعدة مهمة في حربهم ضد اليابان. منحتها بريطانيا حكما ذاتيا في عام 1931 ثم نالت استقلالها الكامل عام 1948 لكن بريطانيا - كعادتها في خلق المشكلات قبل المغادرة - لم تخرج من سيرلانكا إلا بعد أن زرعت بذور الفتنة بين (التاميل) سكان شمالي الجزيرة والسنهاليين ساكني ما تبقى منها، فوقعت الحرب بينهما لأكثر من ربع قرن (1983-2009).

أسماها العرب (سرنديب)، وسماها الإنجليز (سيلان)، وأطلق عليها أهلها بعد أن استعادوها بسنوات طوال؛ أي في عام 1972(سيرلانكا).

نفى الإنجليز إليها الشاعر المعروف محمود سامي البارودي سبعة عشر عاما حتى عام 1900 ولم يُنسه جمال طبيعتها غربته، فقال فيها قصيدته التي مطلعها:

كفى بمقامي في سرنديبَ غربةً نزعتُ بها عني ثياب العلائقِ

قبل عام 2008 لم تكن سيرلانكا معروفة من قبل السياح السعوديين، ولم يكن يتردد عليها غير أصحاب مكاتب توظيف العمالة، أو التجار الذين يستوردون الشاي والساري.

قبلها كنت أشاهد إعلانات في القنوات الأجنبية، وفي المجلات الغربية تدعو للسياحة في سيرلانكا، وتعرض مشاهد تخلب الألباب، وكنت أتساءل: هل يذهب لهذا البلد أحد؟!

وحين خطر في بالي زيارة سيرلانكا تذكرت حديثا دار بيني وبين أحد زملائي عن هذه البلاد، وكان حديث الخبير؛ فقد عمل - قبل أن يصبح زميلا لي - في سفارة المملكة العربية السعودية في سيرلانكا، ولم يبخل علي بمعلومة أو وصف حبب إلي ارتياد البلاد.

وكنت أسمع بالحرب الدائرة بين الحكومة السيرلانكية وحركة (التاميل) لكن ما يطمئن أن الأحداث كلها كانت في الشمال الشرقي من البلاد، ولم نكن نسمع عن حوادث من أي نوع في العاصمة والمدن الرئيسة.

لم تكن المعلومات في عالم (الإنترنت) عام 2008 متاحة بهذا القدر الذي نراه هذه الأيام، لكني مع ذلك استطعت جمع معلومات لا بأس بها عن أهم المدن والأماكن السياحية، وقررت الرحلة إلى هذه البلاد، وعرضت الأمر على صديق مقرب لي لغرض مرافقتي لكنه عجب من اختياري لهذا البلد، ولم يشجعني على الذهاب إليه، وأخذ يعرض علي دولا أخرى حتى يتسنى له مرافقتي.

ولأني اعتدت أن أسافر وحدي فلم أكترث لعدم موافقة صديقي على مرافقتي. اتجهت إلى أحد مكاتب السفر والسياحة المشهورة في مدينتي الرياض لأن حجز الرحلات الجوية والفنادق عن طريق الشبكة العنكبوتية لم يكن أمرا مألوفا كما هو اليوم، وأتممت من عنده حجز الرحلة على الخطوط السعودية (الرياض - كولمبو - الرياض)، وكذلك حجز الفنادق في المدن الرئيسة (كولمبو) و(كاندي) و(نوراليا) و(بنتوتة).

في طريقي من المكتب إلى البيت صادفت صديقي الذي عرضت عليه مرافقتي وأخبرته بما فعلت. قال لي إنه لم يكن يعلم أني جاد إلى هذه

الدرجة، وأنه كان يريد من معارضته إياي أن نتفق على بلد آخر، لكن ما دمت مصرا على الذهاب إلى سيرلانكا فإنه سيرافقني!.. هنا حرصت على إتباع القول بالفعل، واصطحبته معي بسيارتي إلى المكتب نفسه، وحجز تذكرته وفنادقه..

في الطريق إلى كولمبو

كان سفرنا في يوم الإثنين الثاني عشر من مايو 2008 في رحلة ليلية من مطار الملك خالد. لم يكن في الدرجة السياحية سعوديون غيرنا؛ أنا وصديقي. فور الإعلان عن فك أحزمتنا بعد أن استقرت الطائرة في مسارها التفتت إليّ راكبة في الصف الأيسر كان يفصل بيني وبينها الممر، وأخذت تحدثني بلغتها (السنهالية) بشيء من الحدة، وأخذت تشير بين فترة وأخرى إلى رقبتها وكتفها، وتدخَّل راكب بجوارها لترجمة ما تقول، فإذا هي تشتكي من سوء معاملة كفيلها السعودي، وأنها لم تكمل فترة التجربة - ثلاثة الأشهر - وتقول إنه كان يعنفها ويضربها. ولأن المترجم كان يتحدث بصوت مسموع فقد أصبحنا نحن الثلاثة - أنا والسيرلانكية والمترجم - بؤرة سلطت علينا أعين السيرلانكيين في الطائرة. قلت لسليمان؛ صديقي ومجاوري: ليت قومي يعلمون. ليتهم يعلمون أن هؤلاء العمالة الذين لا يعبؤون بهم سفراء لبلادهم ينقلون لها ما يشاهدونه بأمانة.

ولأننا كنا نلبس ملابس صيفية عادية (casual) ولا فرق في الشكل بيننا وبين السيرلانكيين الذين يشكلون كل ركاب الطائرة؛ فلم نلفت انتباه المضيفة العربية التي كانت تقدم خدماتها بصورة سيئة. مدت يدها بصينية العشاء ولم تسألنا عن رغبتنا. فسألتها بالعربية: ألم تتعلمي في المعهد الذي تخرجتِ منه أن تسألي الراكب عما يريد إذا كان لديك أكثر من خيار؟ وهنا فوجئتْ بمعرفتي أنها عربية، وبأني عربي، واعتذرت عذرا أقبح من ذنب.

قالت: مأ كنت أعرف أنك عربي.

قلت: وهل علموكم في شركة الخطوط السعودية أن تعاملوا الركاب حسب جنسياتهم؟!

تناولنا طعام العشاء وشربنا الشاي والقهوة ولم يكن انصرم من زمن الرحلة ساعة ونصف، وفجأة خُفضت أنوار الطائرة، وأُعلن عن ربط الحزام لوجود مطبات هوائية. استمرت إشارة ربط الحزام حتى هبطنا في مطار كولمبو ولم يكن هناك أي مطب؛ مما جعلنا نخمن أنها حيلة من موظفي الملاحة الجوية حتى لا ينزعجوا من طلبات الركاب وحركاتهم.

حين كنا نحلق فوق بحر العرب قبل الدخول في أجواء سيرلانكا كانت الشمس تصبغ الأفق باللون البرتقالي. كان المنظر مغريا لأن نعصي تعليمات ملاحي الطائرة ونفتح ستارة النافذة لنستمتع بجمال الكون ونلتقط الصور لشروق الشمس.

اليوم الأول في كولمبو

هبطت الطائرة بسلام في مطار (باندرانايكا) الدولي Bandaranaike واتجهنا فورا إلى نوافذ الجوازات. ولما كنا حصلنا على تأشيرة الدخول سلفا من السفارة السيرلانكية بالرياض؛ فقد وفرنا الوقت للحصول عليها من المطار. اتجهنا إلى ناقل الحقائب الكهربائي (السير)، وتسلمنا حقائبنا ثم اتجهنا إلى مكتب صرف العملات وحصلنا على العملة السيرلانكية بدلا من الدولارات، ثم إلى إحدى شركات الاتصالات لنشتري شريحتي هاتف للمكالمات والإنترنت.

كان أصحاب شركات السياحة يدعوننا إليهم لنتفق معهم على برنامج سياحي مدة زيارتنا، لكننا قررنا أن نؤجل الموضوع حتى نصل إلى المدينة، واستأجرنا من أحد المكاتب سيارة بسائقها تقلنا للفندق الذي حجزنا فيه ليلة واحدة، وقد تزودنا ببعض بطاقات التعريف من وكلاء السياحة، ووعدناهم بالاتصال بهم حين نرتاح من عناء السفر.

سجلنا دخولنا في فندق (جالاداري) Galadari Hotel وكان من الفنادق القليلة ذات النجوم الخمس. وما دفعنا إليه هو ظنُّنا السيء بدولة سيرلانكا، فلم نتوقع أن نجد الراحة والنظافة في فنادق أقل مستوى من النجوم الخمس..

استرحنا قليلا لكن شغفنا بالتعرف على العاصمة السيرلانكية منع عنا النوم. كان الوقت قرب العصر حين خرجنا إلى الشارع دون هدف معين وإذ بسيارة صغيرة ثلاثية العجلات تسمى (توك توك) Tuk Tuk وهي سيارات الأجرة الشائعة هنا. طلبنا من السائق إيصالنا إلى منطقة تسوق ومطاعم، فأخذنا إلى مجمع تسويقي. ترجلنا من التوك توك وكان المطعم مقابلنا.. تذكرنا أننا لم نتناول شيئا بعد إفطار الطائرة ساعة الشروق، فسارعنا إلى المطعم، وتناولنا غداء سيرلانكيا لذيذا، وخرجنا إلى مركز التسوق المجاور. اشترينا بعض مستلزمات الرحلة مثل (أفلام) لآلة التصوير، وبطاريات جافة، وقررنا العودة إلى المنطقة المركزية حيث فندقنا للبحث عن برنامج لرحلتنا، سواء أمن الوكالات السياحة، بالفندق أم من الوكالات في الشوارع المجاورة.

حين دخولنا الفندق قالت لي موظفة الاستقبال إن شخصين ينتظراننا في الاستقبال..

قلت لرفيق السفر مازحا: هل تعرف أحدا في سيرلانكا؟ هناك زائران ينتظراننا فلنرَ من هما!

أشارت الموظفة لشابين يجلسان على أحد المقاعد المبثوثة في صالة المدخل (the lobby) وقالت لنا: ها هما.

سلمنا على الرجلين وعرَّفانا بنفسيهما، وتذكرنا أحد الوجهين. ليس غريبا، فقد التقيناه هذا الصباح في وكالة السياحة بالمطار واستأجرنا منه السيارة التي أوصلتنا للفندق.

كان هذا هو صاحب الوكالة السيد (جاك) Jack، وبرفقته السائق (ليونيل) Lionel الذي رشحه جاك ليتولى قيادة سيارتنا مدة الرحلة.

أخبرناهما بأننا سبق أن رسمنا خطتنا، ووزعنا أيامنا على المدن التي سنزورها، وحجزنا فنادقنا مقدما، ولا نحتاج سوى سيارة وسائق يتحدث الإنجليزية، وأطلعناهما على برنامجنا والأماكن التي قررنا زيارتها، وطلبنا منهما أن يعدلا في البرنامج ويضيفا عليه ما يريان.

أخبرنا جاك بأن السائق الذي اختاره لمرافقتنا من خيرة السائقين لديه، وأنه خبير بالمناطق السياحية ومطواع، ولن نجد منه إلا ما يسرنا. بعد قليل من المفاصلة التي لابد منها اتفقنا على السعر وطريقة الدفع. نصف المبلغ مع توقيع العقد الآن، والنصف الأخير في منتصف الرحلة. وقعنا العقد ودفعنا المقدم، واتفقنا على أن يكون السائق لدينا صباح الغد في الساعة الثامنة تماما لبدء الجولة.

فندق (جالاداري) حسب المعلومات التي استقيناها من بعض المواقع الإلكترونية يملكه تاجر إماراتي، ولذلك فهو مقصد العرب - وبخاصة من أصحاب مكاتب استقدام العمالة للخليج - وأيضا هو مقر لملاحي شركات الطيران الخليجية، ومع ذلك لم نصادف ليلتنا هذه أي عربي.

وجدنا لوحة تشير إلى المطعم الشرقي في الفندق، وتبعنا اللوحة وإذ بمطعم لبناني جميل تصدح فيه أغنيات فيروز وصباح فخري ووديع الصافي، يقدم الأطباق اللبنانية والمشاوي على شكل بوفيه مفتوح. كان السعر عشرة دولارات فقط للفرد. أنهينا عشاءنا، وقضينا سهرة جميلة، ونمنا مبكرين استعدادا لرحلتنا التي ستبدأ صباح الغد..

على الرغم من فارق التوقيت إذ تتقدم سيرلانكا على توقيت المملكة بساعتين ونصف؛ إلا أننا لم نجد صعوبة في النوم المبكر والاستيقاظ المبكر مما أتاح لنا استخدام المسبح والجاكوزي والساونا قبل طعام

الإفطار. وعند الساعة الثامنة تماما كنا قد سجلنا الخروج من الفندق، وحملنا أمتعتنا في سيارتنا، وانطلقنا في طريقنا إلى كاندي.

إلى كاندي

الطريق من كولمبو إلى كاندي Kandy حوالي عشرين ومائة كيل باتجاه الشمال الشرقي في طريق ضيق بدأ في التعرج حين أخذنا نتوغل في المرتفعات بعد أن خرجنا من العاصمة.

السرعة محددة، والطريق لا تسمح بالسرعة أيضا. في منتصف الطريق تقريبا توقف بنا السائق في منتزه صغير عبارة عن تل في قمته مقهى. استمتعنا باستراحة قصيرة تناولنا فيها أقداح الشاي السيرلانكي كما يصنعه ويشربه السيرلانكيون. سمعنا نايا ينبعث من غصن شجرة بالقرب منا، وحين التفتنا تجاه الصوت كان أحد المتكسبين يمارس حرفته وهوايته في آن. كان العازف قد هيأ له مكانا في أعلى الشجرة كما تفعل الطيور.. بعد العزف نزل إلينا ليحيينا ويأخذ ما جادت به أنفسنا من (روبيات)..

محمية الأفيال

واصلنا سيرنا، وأخبرَنا السائقُ أن محمية الأفيال Pinnawala Elephant Orphanage من أهم المزارات المدرجة ضمن برنامجنا وهي في طريقنا قبل دخول مدينة كاندي، واستأذننا في أن نزورها قبل أن يوصلنا إلى فندقنا. توقفنا في محمية الأفيال وبدأنا جولة على ظهر فيل. كنت أتوقع أن ركوب الفيل آمن بالنظر إلى مساحة ظهره التي تتسع لعدة أشخاص دون عناء، لكن ما لم نحسب حسابه - أنا وسليمان - هو اهتزازه في سيره ذات اليمين وذات الشمال، وأدركنا هذه الخطورة حين عبر بنا جسرا ضيقا على قناة مائية متفرعة من النهر يكاد لا يتسع لسواه.

تجولنا بعد ذلك في المتحف؛ وهو متحف خاص بالأفيال، فيه صور تشرح حياة الأفيال ومعيشتها، وهياكل تبين أجزاء أجسامها، ثم معرض للصناعات المستفيدة من جلودها وأنيابها.

كانت الساعة تقارب منتصف النهار حين انتقلنا إلى القسم الخاص بالأفيال الأيتام، وكان هذا هو موعد إرضاع الصغار. المختصون يملؤون الرضاعات بالحليب، ثم يصبونها في أفواه الأفيال، ويشجعون السياح على المشاركة في عملية التغذية هذه..

بعد ذلك انتقلنا إلى شارع للمشاة يملأ جانبيه محلات بيع التحف والمصنوعات الوطنية الجلدية والخزفية، وانتهى بنا الممر إلى أحد المطاعم المطلة على نهر صغير يجري تحته. أخذنا مقاعدنا لتناول غدائنا وإذ بالأفيال تفد إلى النهر زرافات، وتنزل إلى النهر لتُجرى لها عملية استحمام. كانت بعض الأفيال الصغيرة قبل أن تنغمس في الماء تأخذ التراب بخرطومها، وتنثره على جسمها مما يدل على أنها قد دربت على فقرة الاستحمام هذه لجلب اهتمام السائحين..

عروض فلكلورية

انتقلنا إلى وسط المدينة في طريقنا للفندق، واستأذن منا سائقنا - مرة أخرى - في أن نمر على مزار سياحي آخر قبل أن نمضي قدما إلى الفندق.

قال لنا: هذا المزار هو مسرح يعرض فيه رقصات من الفلكلور والألعاب الشعبية، تبدأ عروضه في الخامسة تماما، فإن كنتم ما زلتم مستمتعين بالرحلة فمن الأفضل أن نمر عليه قبل الفندق.

وكنا مستمعين وغير متعبين فلم نمانع، واتجهنا مباشرة إلى المسرح. اشترينا تذاكرنا وأخذنا جولة على بحيرة كاندي Kandy Lake المجاورة حتى أُذن لنا بالدخول.

كانت العروض المقدمة في المسرح تستهدف إطلاع السائحين على تاريخ مملكة كاندي Kandy منذ نشأتها وكفاحها المرير ضد محاولات المستعمرين إخضاعها لسيطرتهم كما فعلوا في بقية أقاليم الجزيرة، ولذلك جاءت العروض معبرة عن اعتزاز أهل كاندي بمملكتهم وبعاداتهم القديمة وألعابهم ورقصاتهم وملابسهم. كان من ضمن ما شاهدنا الحواةُ يداعبون الثعابين ويلعبون بالنار؛ يعرِّضون أجسادهم لها، ويمشون على جمرها المتقد حين استوى.

استمتعنا بجولتنا هذا اليوم واتجهنا إلى فندق (إيرل ريجنسي) Earl's Regency Hotel الذي حجزنا سكننا فيه. يقع الفندق على قمة تل، ويتألف من أكثر من مبنى، ولذا فله أكثر من مدخل، لكن يربط بين أجزاء الفندق جسور تنقل الساكن بسهولة للجزء الذي يقصده.. سجلنا دخولنا واتجهنا إلى غرفنا وقضينا ليلتنا في مرافق فندقنا الممتعة والمنوعة.

معالم سياحية

في اليوم الثاني من أيام كاندي أخذنا قائدنا إلى أشهر المعابد البوذية في سيرلانكا Sri Dalada Maligawa وهو ما يعرف بمعبد (السن المقدس) the Temple of the Sacred Tooth Relic.

هذا المعبد يقع في جزء من القصر الملكي لمملكة كاندي، ويؤمه عدد لا يحصى طوال العام من أتباع البوذية من أنحاء العالم، إضافة لمن يرغب من السياح المتبعين ديانات أخرى. وتدور حول تاريخ المعبد أساطير لا حصر لها كأساطير البوذا نفسه. وتعود أهمية المعبد إلى وجود (ناب) البوذا الذي سلم بعد حرقه، وسلمه أحد أتباع البوذا للملك. وتقول الأسطورة إن من يحصل على هذا السن يكن له الحق الإلهي في ملك منطقته. وقد انتقل الناب من مكان إلى مكان حتى استقر في قصر مملكة كاندي.

حين رآنا سائقنا ومرشدنا متعجبين من كثرة الزوار قال إن شهر مايو يكاد يكون أقل الشهور إقبالا من السياح الأجانب لأنهم عادة لا يأتون إلى سيرلانكا إلا حين يقرصهم الشتاء في بلادهم نظرا لاعتدال المناخ هنا طوال السنة.

بعد ذلك انتقلنا إلى إحدى حدائق الأعشاب التي تشتهر بها كاندي وغيرها من مدن شبه القارة الهندية. يزرع في هذه الحديقة كل النباتات التي تستخدم في الاستعمالات الطبية، كما يصنع منها داخل المزرعة مراهم وزيوت لعلاج آلام العضلات والأعصاب، وملحق بالمزرعة صيدلية لبيع المنتجات..

سيقريا ودامبولا

خرجنا من الحديقة واتجهنا حسب توصية السائق إلى (سيقريا) Sigiriya المعروفة بصخرتها المقدسة التي يحج إليها البوذيون، ويقصدها السائحون من كل مكان. تقع سيجريا في الجزء الشمالي من منطقة (ماتالا) Matale District على مسافة سبعين كيلا من كاندي.

حين مررنا على الصخرة رأيناها في قمة جبل، وكان علينا للوصول إليها صعود مئات العتبات، ولما كنا مستغنين عن ثواب البوذا، ولسنا من الآثاريين لنقرأ النقوش؛ فقد آثرنا الراحة، واكتفينا بمطالعة كتيب معنا يتحدث عن الصخرة، ويشرح لنا رسومها ونقوشها ومدلولاتها وتاريخها.

عرفنا أن الملك (كاشيابا) Kashyapa اختار هذا الموقع في القرن الخامس الميلادي ليكون مقرا لعاصمته الجديدة، فبنى قصره على قمة هذه الصخرة، وزين جوانبها بلوحات جدارية ملونة. وأقيمت بوابة على شكل أسد هائل على هضبة صغيرة في منتصف الطريق إلى هذه الصخرة. وبعد وفاة الملك استُخدم هذا الموقع معبدا بوذيا حتى القرن الرابع عشر. وقد سُجلت سيجيريا ضمن مواقع التراث العالمي في قائمة اليونسكو.

في طريق عودتنا مررنا على (دامبولا) Dambulla التي لا تبعد عن سيجريا سوى مسافة قصيرة، وهي من المدن القديمة التي أصبحت مزارا لعشاق آثار الممالك التي أقيمت في أرض جزيرة سيرلانكا، ومازالت كهوفها ونقوشها شواهد حية على تلك الفترة.

واصلنا مسيرتنا ولم نتوقف إلا في منتصف الطريق إلى كاندي في منتجع يضم حديقة شاسعة ومسبحا ومطعما مطلا على المسبح. قضينا وقتا ممتعا في هذا المنتجع، وتناولنا فيه طعام الغداء على حافة المسبح، وعدنا أدراجنا إلى كاندي مع غروب الشمس.

الحديقة الملكية

ومع بداية يوم جديد أخذنا قائدنا إلى الحديقة الملكية Royal Botanical Garden وهي حديقة شاسعة تقع غرب مدينة كاندي في منطقة (بيرادنيا) Peradeniya بالقرب من نهر (مهاويل) Mahaweli River على بعد خمسة أكيال ونصف، وهي مشهورة بأنواع مختلفة من أزهار (الأوركيد) إلى جانب الآلاف من الشجيرات العطرية والطبية. وفيها أعداد لا تحصى من الأشجار المعمرة التي وضع أمام كل منها سيرة ذاتية للشجرة؛ اسمها ومن أين جاءت وما موطنها الأصلي، ومتى غرست هنا.. ويخترق الحديقة نهر تجمع فيه العديد من المواطنين بأسرهم لركوب القوارب الصغيرة.

أسس الحديقة عام 1821 (ألكسندر مون) Alexandar Moon الذي أرادها أن تكون مختصة بالقهوة والقرفة. وفي عام 1843 جلبت لها نباتات من حديقة (كيو) في كولمبو Kew Garden ومن حديقة (كالو تارا) Kalutara Garden وقد توالى على إدارتها عدد من المختصين بعلوم النبات الإنجليز قبل أن تتولاها إدارة الزراعة حين تأسيسها عام 1912

تبلغ مساحتها مائة وسبعة وأربعين فدانا وتحتاج ليوم كامل للمرور بكل أنحائها لكنا اكتفينا ببضع ساعات لأن في برنامجنا موقعا سياحيا متميزا.

هوناس فول

انتقلنا إلى شلال (هوناس) Hunas Falls الذي يقع خارج مدينة كاندي في قرية (إلكادوا) بمنطقة (ماتالا) Matale District, Elkaduwa Village على مسافة اثنين وعشرين كيلا. الطريق للشلال يمر عبر طريق جبلي وعر. صعدنا الجبل فبدا لنا الشلال شيئا فشيئا، وحين اقتربنا منه بدا هديره أكثر جلبة، وحين حاذيناه توقف قائد سيارتنا، وترجلنا من السيارة. طريق المشاة غير مهيأ، ومع ذلك فهناك بعض المغامرين من الذين تحولت أقدامهم إلى حجارة من كثرة اعتيادهم المشي على الصخور حفاة؛ هم من نعم بحمام من الشلال مباشرة. ولم نكد نركب سيارتنا - وقد ظننا السائق سيهبط بنا - إذ به يواصل الصعود. ولم نكد نسأله إلى أين يتجه حتى دخل بنا عبر بوابة عليها لوحة تشير إلى أننا في فندق (أمايا هوناس فولز) (Amaya Hunas Falls)

أي فندق؟! بل أي منتجع امتزج فيه جمال الطبيعة بالهندسة البشرية، فالشلال الذي كنا قبل قليل نرقبه من كثب ونتمنى أن نصل إليه هاهو تحت أنظارنا، وقد تشكل من المياه المتناثرة منه بحيرة كبيرة يطل عليها الفندق، وتجري فيها المراكب الصغيرة والدراجات المائية.

تذكرت من قراءاتي السابقة أن السياح الغربيين مولعون بهذا الفندق؛ ليس للتنزه ليوم واحد - كما نفعل نحن - بل للإقامة فيه عدة أيام من أجل التعرض لحشرة نباتية - إن صح التعبير - كالبعوض، لسعتها نافعة لكثير من الأمراض الجلدية!..

قضينا يوما جميلا في هذا المنتجع، وتناولنا طعام الغداء الذي صادف يوم زيارتنا أن كان (بوفيها) شرقيا؛ مواجهين للبحيرة وللشلال المهيب.

نبات يأكل حيوانا

ركبنا سيارتنا عائدين للفندق. كنت طوال الطريق الذي امتد حوالي الساعة أشعر ببلل في ساقي اليمنى وإذا لمست بنطالي (الجينز) أجده أكثر سماكة من المعتاد. قلت لعل ما تعرضنا له من مياه الشلال قد بلله، وليس من السهولة أن يجف الجينز.. حين وصلت غرفتي، وأردت استبدال ملابسي بملابس أكثر راحة وجدت ساقي تنز دما، واكتشفت أن ما أثقل الجينز ليس ماء بل دما!.. كان سليمان قد استأذن مني حين دخلنا الفندق، وأعلن عن رغبته في قيلولة متأخرة، ولذا اتصلت بقسم الاستقبال في الفندق وطلبت منهم إسعافات أولية. ولما سألوني عما بي وأخبرتهم أني لا أدري إلا أني كنت في هوناس فول؛ ضحكوا وهونوا علي الأمر، وأخبروني أني مخظوظ فقد لدغت من الحشرة التي يأتي من أجلها الغربيون!.

قلت: إني لست خائفا من الحشرة، ولكني خائف من نزيف الدم. أريده أن يتوقف.

أشاروا علي بالذهاب إلى مستوصف قريب من الفندق، فاستدعيت سائقنا بعد أن كنا أذنا له بقية اليوم. وجاء السائق على الفور واستعلم عن موقع المستوصف، وأخذني إليه. كان عبارة عن وحدة صحية صغيرة. وجدنا صالة انتظار بها عدد من المواطنين، لكنهم لما عرفوا أني غريب قدموني عليهم بسماحة نفس لم أر لها نظيرا من قبل.

دخلت على الطبيب، وعاين الجرح، ووجَّه الممرضة بما أحتاج، وكتب لي وصفة طبية؛ عبارة عن عدد كبير من الأقراص، أتناول منها كمية كل ست ساعات. وبعد أن تسلمت العلاج من الصيدلية أخذتني الممرضة المرافقة لقسم المحاسبة. توقعت أن يستغلوا جنسيتي الخليجية كما يفعل غيرهم، لكنهم لم يفعلوا. كان الحساب مائة وأربعين روبية، أي ما يعادل دولارا ونصف!

تذكرت في هذه اللحظة موضوعا قرأته في المرحلة الإعدادية بعنوان (نبات يأكل حيوانا)، لكني حتى هذه اللحظة لست متأكدا إن كان ما عضني نبات أم حيوان!

إلى نوراليا

ودعنا فندقنا إلى وجهتنا اليوم؛ إلى (نوراليا) Nuwara Eliya تلك البقعة من الأرض التي تعلو السحاب. لا تبعد نوراليا كثيرا عن كاندي، ولذلك لم نكن حريصين على التبكير كالعادة. وكان سيرنا بطيئا لسببين: الأول أن الطريق متعرج وصاعد، والثاني أن الطبيعة تجبرنا على تأملها وتلح علينا بالتوقف لالتقاط الصور التي يندر مثالها. توقفنا أكثر من مرة لنشتري من الفواكه العجيبة الألوان والطعوم والأسماء، ومرات لتأمل القرى والأرياف ووسائل الزراعة وجني محصول الشاي من قبل النساء. كن يقطفن ما أمامهن من أوراق الشاي ثم يلقينه خلف ظهورهن في المكاتل التي ربطنها إلى ظهورهن. وتوقفنا مرة لتناول الشاي السيرلانكي في أحد المتنزهات الجبلية، ومرة لغسل وجوهنا من مياه الشلالات..

قبل دخولنا مدينة نوراليا استأذننا السائق في أن نتوقف في أحد مصانع الشاي، وتوقفنا. كان استقبالا رائعا من منسوبي المصنع، وجولة تعريفية بأقسامه، ثم في معرض يضم النوعين المعروفين من الشاي الأسود والأخضر، كما يضم الأنواع المختلفة من الشاي المصنع بنكهات من أنواع الفواكه. وأثناء الحديث مع موظفي العلاقات العامة بالمصنع دارت علينا أقداح الشاي، ووجدنا أنفسنا تلقائيا نتأمل المنتجات، ونشتري من الشاي أنواعا مختلفة، وننتقي بعض الأدوات الخاصة بإعداده والأكواب التذكارية.

غادرنا المصنع إلى فندقنا الذي حجزنا فيه؛ فندق صغير من فئة النجمات الثلاث. لم يكن لنا خيار آخر لأن فنادق المدينة قليلة؛ فضلا عن أن الطلب عليها مرتفع، وبخاصة فنادق وسط المدينة.

ولما كان فندقنا في وسط المدينة رغبنا أن نقضي ما تبقى من اليوم مشيا على الأقدام للتعرف على هذه المدينة الصغيرة، ومنحنا قائدنا إجازة ما تبقى من النهار على أن يعود ليلا ليأخذنا إلى مطعم هندي شهير ملحق بالفندق الوحيد ذي الأربع نجوم.

نوراليا مدينة صغيرة أحبها الإنجليز واستوطنوها، وسموها Little England ولذا فالأسماء الإنجليزية هي السائدة فيها، ومن الأمثلة فندقنا هذا، فاسمه (وندسور) Windsor Hotel

تقع نوراليا في إحدى قمم الجبال. درجة الحرارة نهارا تتراوح بين 15-17 درجة طوال العام، أما في الليل فتنخفض عن هذا المقدار كثيرا. يكاد المطر يهبط منها، لا إليها لأنها تعلو الغمام.. يكفي أن تفتح نافذة الغرفة لترى الغمام قد احتل الغرفة بدلا من الهواء..

قضينا وقتا ممتعا في هذه المدينة الصغيرة، وتجولنا في شوارعها ومتنزهاتها ومقاهيها، وعدنا أدراجنا مع غروب الشمس حين ارتفعت الأصوات تنادي للصلوات.. مآذن المسلمين ترفع آذان المغرب، والكنيسة المجاورة تدق أجراسها، والمعبد البوذي يردد ابتهالاته، وتكرر المنظر عند الفجر ومطلع الشمس!

حوار مع سائقنا

كنا ننتظر سائقنا في صالة استقبال الفندق وفجأة ظهر لنا.. مر بنا ثلاثة أيام في كاندي وهو برفقتنا ولم نسأله أين يقضي وقته بعد أن يتركنا كل يوم؟ كان (جاك) - صاحب الشركة التي يعمل لصالحها - قال لنا إننا لسنا مسؤولين عن سكن السائق ولا طعامه، وظننا أنه سيعوضه عن مصاريفه، أو أن السائق سيتدبر أمره ضمن أجرته. لكنا أحببنا أن نطمئن على وضعه فسألناه الآن:

يبدو أنك تسكن قريبا من هنا يا ليونيل؟

قال: أنا أسكن في هذا الفندق. كل الفنادق في سيرلانكا بمختلف درجاتها تؤمن للسائقين المرافقين غرفا وطعاما.

وهنا اطمأننا على سائقنا، وأخذنا نتجاذب معه أطراف الحديث، فقد كان في الأيام الماضية مشغولا بالقيادة، وكنا مشغولين ببرنامجنا السياحي. تعرفنا عليه أكثر. وعرفنا منه كثيرا عن سيرلانكا وأحوالها. وصححنا كثيرا من معلوماتنا المغلوطة فقد كنا نظن (التاميل) الذين تحاربهم الدولة فرقة مارقة، وأنهم ليسوا سيرلانكيين. وكنا نظن (الهندوسية) هي الديانة السائدة في سيرلانكا بحكم مجاورتها للهند حتى قال لنا إن البوذية أكثر انتشارا، وعرفنا منه أنه بوذي، وأن جاك كاثوليكي.. وأن الديانة ليس لها اعتبار عندهم فالكل سواء من جهة معاملة الحكومة لهم، حتى إن الأعياد الدينية لكل طائفة يحتفل بها الجميع وتعطل لها دوائر الحكومة والقطاع الخاص.

تمنيت أن يكون كلامه صحيحا، وأن ينعم الجميع بالسلام. لأني في أثناء التجوال في مدينة نوراليا هذا المساء تحدثت مع مسؤولة في أحد المتاجر قالت لي إنها مسلمة، وتعمل في هذا المحل منذ خمسة عشر عاما، ومع ذلك فإن رب العمل يضايقها لتستقيل، ويوظف بدلا منها بوذية أو هندوسية، ومن مضايقته أنه لا يسمح لها بارتداء الحجاب، وأن عقابها التسريح من العمل لو هي فعلت ذلك..

أخذنا سائقنا إلى المطعم الهندي المجاور لفندق جراند Grand Hotel الذي استقبلتنا فيه روائح (التندوري)، وكدنا لا نجد فيه مكانا شاغرا إذ كان يفترض أننا حجزنا مسبقا. كان مكانا يستحق الزيارة لطيب أكله وموقعه وحسن تعامل العاملين فيه..

فندق مصنع الشاي

في صباح يوم جديد أخذنا قائدنا إلى فندق مصنع الشاي Tea Factory Hotel. هذا الفندق كان مصنعا للشاي منذ زمن مضى، وقرر صاحبه تحويله إلى فندق، ولم يغير من شكله شيئا حتى مداخن المصنع ومعداته ما زالت باقية كما هي؛ غير أنها متوقفة عن العمل.

الفندق في قمة جبل، والطريق لا يزيد عن خمسة أكيال، لكنه يستغرق وقتا لا يقل عن نصف ساعة، فالطريق ضيق جدا لا يتسع لسيارتين، فحين تقبل سيارة فلا بد أن تنتظر إحداهما الأخرى حتى تمر بسلام، وفوق هذا فالطريق ترابي غير ممهد. وقد عجبنا - أنا وزميلي - بعد أن تجولنا في الفندق، ورأينا كثرة مرتاديه كيف لم يفكر صاحبه في تعبيد الطريق؛ بل وتوسيعه ليسهل للسياح ارتياده؟!.

للفندق إطلالة فريدة على مدينة نوراليا وعلى مزارع الشاي المتناثرة في الأراضي المحيطة به. ملحق به مزرعة صغيرة للشاي ومصنع مصغر لبيان كيفية زراعة الشاي وتصنيعه للسياح..

وفي ركن من صالة الفندق كان أحد العاملين يعد الشاي أمام الضيوف شارحا طريقته في الإعداد، ثم يناول ضيوفه أقداحهم بكل سعادة. كان الجو مغريا لقضاء أطول وقت ممكن في هذا المنتجع.. هكذا أمضينا الوقت في جولات في مرافق الفندق وما يحيط به حتى إذا حان موعد الغداء تناولناه في مطعمه ذي الإطلالة الساحرة..

بحيرة جريجوري

غادرنا الفندق إلى معلم آخر من المعالم القليلة في مدينة نوراليا، وهو بحيرة (جريجوري) Gregory Lake التي تنسب للسير (ويليام جريجوري) Sir William Gregory عام 1873.

في هذه البحيرة يمكن ممارسة العديد من الرياضات كالمشي حول البحيرة، أو ركوب القوارب. كما يمكن للشباب والأطفال ركوب الأحصنة الصغيرة (المهرات) المعروفة بالـ (pony) والدوران بها حوالي البحيرة. ويحيط بالبحيرة أكواخ خشبية للإقامة المؤقتة.

أمضينا في البحيرة ما تبقى من نهارنا، وعدنا لفندقنا للنوم المبكر استعدادا لرحلة طويلة وشاقة!

من الجبل إلى البحر

لم تكد الساعة تعلن عن السابعة صباحا إلا ونحن في سيارتنا مستعدين للانطلاق. تأخر سائقنا ليونيل قليلا في التحرك، وظننا أنه يسخن السيارة.

سأله زميلي سليمان: لم لا تتحرك؟ هل هناك شيء؟

قال: لا. فقط أنا أصلي.. وأصلي لكم..

شكرناه على شعوره الطيب، وانطلق بنا في طريقنا إلى الساحل الغربي؛ إلى مدينة (بنتوتة).. الطريق يزيد عن خمسين ومائتي كيل، تحتاج ليوم كامل من السفر بسبب وعورة الطريق. بدأناه صعودا وقد كنا نظن أن لا مكان يعلو نوراليا. بعد حوالي نصف ساعة أو تزيد قليلا أشار لنا السائق إلى جبل قال لنا إنه يسمى (قمة آدم) Adam`s Peak ويعرف كذلك بـ (نهاية العالم) World`s End يقصده السياح في الهزيع الأخير من الليل ترقبا لشروق الشمس، كما يحج إليه كثير من المواطنين. ولكل معتقده؛

فالبوذيون يرون أن فيه موطئ القدم اليسرى للبوذا، والهندوس يرون البصمة لقدم الـ (شيفا) Lord Shiva وأما المسلمون والمسيحيون فيرون أنها موقع الخطوة الأولى لآدم - عليه السلام - حين هبط من الجنة.

بدأ الطريق في الانحدار التدريجي، وكثيرا ما توقفنا في انتظار سيارة صاعدة، فالسيارة الصاعدة تملك الحق في المرور إذا كان الطريق لا يتسع إلا لسيارة واحدة. وتوقفنا كثيرا عند القرى نتأمل السكان ونشاطاتهم؛ فهذا عرس وهذا مأتم وهذا شلال يغتسل منه الناس، وتغسل القرويات ملابسهن فيه. وما لبثنا أن وجدنا موقفا ممتلئا بالسيارات، وتمهل سائقنا باحثا له عن موقف حتى إذا توقف ترجلنا إلى حيث أخذنا إلى شجرة!

قال لنا: هذه الشجرة يستخرج من جذعها الكاكاو (الشوكولاتة) والناس يقفون هنا كما تشاهدون للحصول على الكاكاو. وأضاف: هل تريدون بعض الكاكاو؟

قلنا: نعم. لكن كيف نحصل عليه؟

فأخذنا إلى دكان صغير غير بعيد، وحدث صاحبه بلغته، فأخرج لنا من مخبوئه وابتعنا منه مقدارا لا بأس به. قال لنا إنه يُتناول مباشرة كالشوكولاتة، لكن معظم الناس يستخدمه لصنع الحلوى السيرلانكية..

توقفنا بعد مسافة قصيرة، وإذ بالنهر ينحدر في اتجاه الغرب متجها إلى بحر العرب، وكثير من السائحين يمارسون رياضة التجديف rafting.

قال لنا السائق إننا سنتوقف بعد حوالي عشر دقائق في منتجع على هذا النهر فإن رغبتم ركبتم قاربا وجدفتم إلى المنتجع وتجدونني أمامكم؟

التفت كل منا إلى الآخر. لم تكن لدينا روح المغامرة، فشكرناه وطلبنا منه أن نواصل السير..

وصلنا إلى منتجع يخترقه النهر. أول ما لفت انتباهنا في مدخله صالة فيها عدد كبير من السيارات ذات الموديلات القديمة تبدو بحالة جيدة. قال لنا دليلنا في المنتجع إن صاحب المنتجع مولع باقتناء هذه السيارات.

تناولنا طعام الغداء على أنغام الطيور من كل جنس، وعلى صوت خرير المياه المتساقطة من شلال بالقرب منا، وعلى صيحات ممارسي رياضة التجديف.

انطلقنا بعد الغداء في طريقنا وقد اختفت المرتفعات، واستوى الطريق إلا من بعض الانحناءات، وأصبحت الشمس مواجهة لنا تماما. ثم تحول بنا الطريق جنوبا وسرنا في خط مستقيم بين أشجار المطاط وحقول الأرز حتى وصلنا إلى مناطق سكنية مأهولة، وبعدها بدأنا في الاتجاه غربا، وما لبثنا أن رأينا زرقة البحر، وأخذت الشمس تهبط تدريجيا على سطح البحر. وصلنا إلى مدينة مزدحمة بالسيارات والمشاة، وعلمنا من اللوحات الإرشادية ومن سائقنا أننا في (بنادورة) Panadura وهي نقطة التقاء طريقنا الذي أتينا منه بالطريق السريع الرابط بين كولمبو والساحل الجنوبي مرورا ببنتوتة. وعندها أخذنا طريقنا جنوبا بمحاذاة الساحل على الطريق السريع وما هي إلا دقائق وإذ بنا في (كالوتارا) Kalutara.

ثم مررنا بمدينة صغيرة تسمى (بيروﻻ) Beruwala تصطف على شارعها الرئيس فنادق عديدة من مختلف الدرجات ومطاعم وفيلات أنيقة وما زالت المباني متصلة حتى وصلنا إلى بنتوتة.. والغريب أنه مع اتصال المدينتين الصغيرتين (بيروﻻ) و(بنتوتة) وتجاورهما، إذ لا تبعد إحداهما عن الأخرى أكثر من ستة أكيال؛ إلا أن كلا منهما تنتمي لمقاطعة، فالأولى تتبع لمقاطعة (كالوتارا) في حين أن الثانية تتبع لمقاطعة (جالي) Galle.

غابت الشمس تماما ونحن نسير في الطريق الساحلي نشم رائحة البحر ونشعر برطوبة الجو لكننا لا نرى البحر، فقد حجبته عنا الأشجار العالية على يمين الطريق.

دقائق أخرى مضت وتوقفنا عند طريق مغلق بسبب وصول القطار القادم من كولمبو إلى محطة (بنتوتة) في طريقه إلى الجنوب. وما إن مر القطار وفتح الطريق حتى عاد المشاة والدواب لحركتهم العادية. هنا تذكرت حوادث قطار الدمام الرياض التي لا تنتهي؛ خاصة في منطقة الهفوف حيث يتلف بعض أصحاب السيارات السياج المعدني ليختصروا طريقهم، وكثيرا ما علقت سيارتهم في طريق القطار لأن الطريق ليس مهيأ لمرور السيارات..

ليل بنتوتة

فندقنا الذي حجزنا فيه لياليا القادمات Surf Hotel فندق صغير واقع على البحر مباشرة. يتكون من طابق واحد، وكل غرفه ذات بابين؛ باب للقادم من صالة الاستقبال، والباب الآخر زجاجي يؤدي إلى شاطئ رملي، يليه مباشرة البحر.

كنا في حاجة لراحة طويلة بعد هذه الرحلة الشاقة التي امتدت ما يقرب من عشر ساعات، لكن رغبتنا في التعرف على ما يحيط بنا جعلنا نضحي بالراحة. خرجنا إلى الشارع الرئيس للمدينة الذي هو جزء من الطريق الرابط بين كولمبو والساحل الجنوبي وحين عبرنا الطريق كان أمامنا مطعم (عايدة) Aida Restaurant صعدنا عبر الدرج المؤدي للمطعم. اتخذنا مكاننا في الهواء الطلق مطلين على النهر، وسهرنا مع النهر والقمر الذي كان في ليلته الثالثة عشرة كأنه حارس أمين.

حين نزلنا من المطعم اكتشفنا أن الطابق الأرضي مصنع ومعرض للمجوهرات باسم (عايدة) أيضا، وخلف المعرض فندق يحمل الاسم نفسه. حين قرأنا اسم المطعم للوهلة الأولى ظنناه مطعما عربيا، لكنا بعد أن قرأنا اسم مصنع المجوهرات إذا بـ Aida الحروف الأولى من أربع كلمات يتألف منها اسم الشركة التي تمتلك هذا المجمع، وليس اسم علم مؤنث كما ظننا!

عدنا إلى فندقنا وقررنا - سليمان وأنا - أن نسهر على رمال الشاطئ أمام غرفتينا، لكن نداء موج البحر، وأشعة القمر كانت تدعونا للاقتراب أكثر، وهكذا وجدنا أنفسنا على حافة البحر تماما. مر بنا الحارس الليلي للفندق، وقال لنا بمنتهى اللطف إن تعليمات الفندق تمنع السباحة بعد غياب الشمس. شكرناه للطفه فتمنى لنا ليلة سعيدة، ومضى..

جولات نهرية وبحرية

استيقظنا مبكرين نشطين.. تناولنا إفطارنا وركبنا سيارتنا متجهين حسب البرنامج لجولة نهرية في نهر (مادو) Madu River أصحاب المراكب يعتمدون على السياح لتأجير مراكبهم فيبالغون في الأسعار فلا بد من مناقشة السعر والاتفاق عليه قبل القيام بالرحلة.. انطلقنا عبر النهر هادئ الجريان، على مركب يسير بمحرك على الديزل.. يحاول ملاحنا قدر الإمكان إطلاعنا على ما يلفت الانتباه كبعض الأشجار المعمرة، لكنها جميعا أشجار (المنجروف) الطفيلية Mangrove.

توقف بنا عند مصائد الأسماك، وبعض الطيور التي يزعم أنها طيور نادرة. وكثيرا ما توقف عند رفاقه المتكسبين الذين تختلف وسائلهم لاستقطاب اهتمام السياح، فمنهم من يحمل قردا مدربا على بعض الأفعال العجيبة، وهناك من يحضر طائرا غريبا ليصوروا معه.

بعد حوالي الساعة من الإبحار وصلنا إلى جزيرة صغيرة جدا بها مزرعة لأشجار القرفة، ومسكن شعبي تسكن فيه الأسرة التي تدير هذه المزرعة. رب البيت يشتغل طول الوقت في صناعة مواد من أشجار القرفة، ويجتهد كلما وصل فوج سياحي للفت انتباههم لعمله ومنتوجاته..

عدنا أدراجنا إلى حيث ينتظرنا سائقنا، وركبنا مواصلين السير جنوبا، وتوقفنا عند قرية صغيرة واقعة على البحر اسمها (هيكادوا) Hikkaduwa دخلنا فندقا صغيرا من نوع الـ guest house. استقبلنا

صاحبه، وعرف من هيئتنا وعدم وجود حقائب معنا أننا لم نأتِ لنستأجر سكنا فعرض علينا أن نستأجر قاربا ذا أرضية زجاجية يأخذنا في جولة بحرية لنرى الأسماك من خلف الزجاج. اتجهنا إلى حيث وجهنا، واستأجرنا مركبا مع قائده سار بنا قرب الساحل، لكنا حين لم نر أسماكا شق بنا عباب البحر، وحين تمادى في البحر أخذ القارب يضطرب من الموج، فهو مركب صغير ليس مهيأ للإبحار العميق، وكأنه أراد بهذا إخافتنا حتى نطلب منه العودة قبل انتهاء المدة المتفق عليها!

عدنا من الجولة البحرية وجلسنا في مقهى الفندق للاستمتاع بالشاي السيرلانكي، وانضم إلى مجلسنا صاحب الفندق، وأخذ يشكو لنا مما أصابه من خسارة جراء إعصار (تسونامي) Tsunami الذي ضرب الساحل قبل سنوات في عام 2004 يعتقد صاحبنا الهندوسي أن الإعصار جاء نتيجة غضب إلهي على البشر، ولذلك قرر من ذلك اليوم عدم بيع المشروبات الكحولية في فندقه..

عجبنا من كلامه ونحن نشاهد عكس ما يقول، فالنادلون أمامنا يحملون قناني البيرة إلى الزبائن المنتشرين على مقاعد المقهى/ البار.

قال سليمان: لكني أرى السياح يحتسون أقداح البيرة!

قال: ما ترونه يجلبه عمال الفندق ويبيعونه لصالحهم، ولا علاقة لي به!

جالي

واصلنا رحلتنا إلى الجنوب بمحاذاة الساحل، حتى توقفنا في مدينة (جالي) Galle عاصمة الجنوب.

هذه المدينة مر بها ابن بطوطة في القرن الرابع عشر وذكرها في مدونته، ووصل إليها البرتغاليون في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكانت الميناء الرئيس للجزيرة. وبنى البرتغاليون المدينة وحصنوها بناء امتزجت

فيه عناصر البناء البرتغالي والمحلي. وزادت أهمية المدينة ومكانتها بعد أن احتلها الهولنديون في القرن الثامن عشر، وأقاموا فيها كنيسة ماري الكاثوليكية St. Mary's Cathedral ولأهمية قلعتها فقد أدرجت ضمن قائمة اليونسكو العالمية.

هذه المدينة هي أكثر المناطق تضررا من تسونامي فقد امتد الماء حتى غمر محطة الحافلات وقضى آلاف المواطنين من المسافرين والقادمين حتفهم غرقا..

انتقلنا على أقدامنا لوسط المدينة وسوقها القديمة، وفي هذه السوق وجدنا متجرا كبيرا على شكل متحف يعرض المقتنيات القديمة، كآلات التسجيل وأجهزة المذياع والأواني المنزلية والعملات المختلفة، والكتب بلغات متعددة؛ ليس بينها اللغة العربية.

خرجنا من المتحف وإذ بمدرسة لفت انتباهنا الزي الموحد لطلابها، فهم يرتدون ثيابا وعمائم بيض، تشبه في طريقة لفها الغترة الإماراتية. يقف على باب المدرسة حارس لم يرحب بنا حتى بعد أن أفصحنا له عن جنسيتنا، وأعلمناه برغبتنا في الاطلاع على المدرسة، ومقابلة مسؤوليها. وافق على مضض وأدخلنا بعد أن تحدث مع أحد معاونيه وسلمنا له. التقينا بمدير المدرسة الذي بدا أنه غير راغب بلقائنا أيضا. فهمنا منه باقتضاب أن المدرسة إسلامية داخلية للدراسة والسكن، وأنها تدرّس بالعربية. سألته إن كانوا يتلقون معونات من الدول الإسلامية، ومن المملكة خاصة؟ ففى ذلك.

قلت له هل تود إيصال صوتكم للمسؤولين عندنا؟

قال: لا!

فتحنا خارطة الدولة للتعرف على الأماكن التي قطعناها حتى الآن، وتأملنا في الخارطة بحثا عما بعد نقطتنا هذه إلى الشرق، فوجدنا مدينة (هام بنتوتة) Hambentota ومعناها باللهجة الكويتية (بنتوتة أخرى)! كنت قد قرأت في مواقع السياحة العربية أن اسم بنتوتة جاء نسبة للرحالة العربي ابن بطوطة، وقد أثبتت لنا (هام بنتوتة) أن هذا الكلام غير صحيح، وأكد لنا سائقنا أن (توتة) تعني شاطئ!

خرجنا من جالي عائدين إلى بنتوتة. قبل أن نصلها توقف بنا سائقنا في منطقة على الشاطئ قال إنها مزرعة للسلاحف. استقبلنا صاحبها وأخذنا في جولة، وشرح لنا عن حياة السلاحف وكيف تعيش وكيف تتكاثر، وعرض علينا أنواعا مختلفة منها، وذكر لنا أعمارها. عند خروجنا أخذنا إلى معرض لبيع التذكارات السياحية، وقال لنا - بصراحة - إن أسعاره مبالغ فيها لأن الهدف التبرع لمزرعته بغض النظر عن جودة منتجه وحاجتنا لاقتنائه، وشكا لنا ما تعرضت له مزرعته من جراء تسونامي!

عدنا إلى بنتوتة. كان ما زال في النهار بقية للاستمتاع بالبحر والشمس فضلا عن الليل الذي نستضيف فيه القمر..

كالوتارا وبيرولا

لم يتبق لنا الكثير مما يمكن رؤيته في بنتوتة وما جاورها، لكن سائقنا أشار علينا بزيارة ملتقى النهر بالبحر في (كالوتارا) Kalutara عاصمة المقاطعة التي تحمل الاسم نفسه. جاءت تسمية المدينة نسبة إلى نهر Kalu Ganga الذي يعني النهر الأسود. كالوتارا منطقة زراعية - كبقية بلاد سيرلانكا - تشتهر بزراعة فاكهة (المانجوستين) Mangosteens الذي قدم إليها من ماليزيا في القرن التاسع عشر، وهي مركز رئيس لتجارة البهارات.

لها شاطئ ساحر فيه متنزه تتوزع جنباته أشجار معمرة تمنح الجالسين على البساط العشبي الأخضر ظلا وارفا. وفضلا عن الاستمتاع بالخضرة؛ هناك الاستمتاع بمرأى البحر الممتزج بالنهر، أو التنزه في أحد المراكب أو السباحة أو التجديف في البحر والنهر معا.

أثناء جولتنا في مركب نقلنا إلى ملتقى النهر بالبحر استرعى اهتمامنا مبنى جميل اتضح لنا حين اقتربنا منه أنه فندق؛ بل منتجع، له واجهتان؛ واجهة مطلة على البحر، وواجهة مطلة على النهر وهو يلتقي بالبحر. إنه منتجع (أفاني كالوتارا) Avani Kalutara Resort أمضينا فيه جزءا جميلا من يومنا ثم خرجنا، وغادرنا كالوتارا.

حان وقت الغداء، فسألنا قائدنا أين سيأخذنا؟ فاقترح علينا مطعما للأسماك على الشاطئ. رحبنا بالفكرة ومضينا حتى وصلنا إلى المطعم.. المطعم واقع على البحر مباشرة والهواء عليل والأسماك طازجة. انتقينا منها ما أردنا وأمضينا وقتا ممتعا.

في طريقنا إلى بنتوتة وحين مررنا بمدينة (بيرولا) Beruwala طلبنا من سائقنا التوقف لاستطلاع المنطقة. هنا وجدنا منتجع Eden Resort & Spa يفتح بوابته في استقبالنا. لا أدري من أين جاء الاسم وهل هو تشبيه بجنات عدن لأن اسم Eden معروف عالميا فهناك جزر وقرى ومدن تحمل هذا الاسم في نواح شتى من الكرة الأرضية. كان فندقا ومنتجعا لا يمكن وصف جماله. المدخل من الشارع الرئيس يؤدي إلى الفندق الذي أقيم على هضبة، وهناك مخرج يؤدي إلى ممرات متدرجة نزولا إلى المسابح المتعددة والحدائق، ثم الشاطئ الرملي فالبحر..

عدنا إلى فندقنا لنحيي سهرة جديدة؛ سهرة وداعية لبنتوتة وبحرها الساحر وقمرها الجميل.. الليلة الخامسة عشرة من الشهر القمري وهذا يعني الكثير للسيرلانكيين لم نعرف عنه إلا في اليوم التالي!

بانادورا

في الصباح سجلنا خروجنا من فندقنا في بنتوتة وركبنا سيارتنا في طريقنا إلى كولمبو Colombo العاصمة. الطريق مزدوج سريع محاذ للبحر. مررنا بمدينة كالوتارا، ثم بانادورا.

كان بنا رغبة لاكتشاف هذه المدينة منذ مرورنا بها قبل ثلاثة أيام ونحن قادمون من نوراليا، فهذه المدينة نقطة تلاقي عدد من الطرق. أبدينا للسائق رغبتنا في التجول في هذه المدينة. توقف بنا في وسط المدينة وترجلنا. كانت مدينة مكتظة بالسكان، وسوقها مزدحمة. على شارعها العام مسجد كبير أبيض اللون ترتفع مآذنه بشكل واضح، وغير بعيد عنه انتصب معبد هندوسي، وكنيسة كاثوليكية في مشهد مألوف في كل أنحاء سيرلانكا.

المدينة فيها كل مقومات السياحة، لكنها لم تأخذ نصيبها بعد، فنهر بولجودا Bolgoda Rive يلتف حولها قبل أن يصب في شاطئها مشكلا منها جزيرة يجعل السائح قريبا من زرقة الماء أينما توجه.

ماونت لافينا

حين اقتربنا من كولمبو منتصف النهار وفي مدخل المدينة الجنوبي؛ وقف شامخا فندق Mount Lavinia Hotel وكأنه يدعونا لزيارته. طلبنا من سائقنا التوقف ودخلنا الفندق. تجولنا في ردهاته، ثم سألنا عن مطعمه، فدلنا أحد العاملين إلى السلم الموصل إليه، فصعدنا. يتألف المطعم من قسمين؛ فهنا صالة كبيرة مكيفة، وخارج الصالة شرفة في الهواء الطلق مفتوحة على البحر. اخترنا الشرفة للجلوس، أما الغداء فبوفيه مفتوح..

توجهنا لنختار أطباقنا، وكانت المفاجأة!.. البوفيه نباتي كله، بدءا بمقبلاته وسلطاته، وانتهاء بأطباقه الرئيسة.

لاحظ من يشرف على البوفيه دهشتنا، فقال معتذرا: اليوم الخامس عشر من الشهر القمري. نعتذر منكم فلا يوجد في مثل هذا اليوم لحم ولا خمر!

وكانت تجربة جميلة أن يكون غداؤنا نباتيا.

شرح لنا سائقنا معنى ألا يقدم اللحم والمشروبات الروحية في هذا اليوم، فالبوذيون في أنحاء العالم يحتفلون به، ويعدونه عيدا لهم، وفي سيرلانكا يشارك بقية الطوائف البوذيين عيدهم هذا، ولذا تعطل المصالح الحكومية ومؤسسات القطاع الخاص مشاركة لهم، وتمتلئ المعابد البوذية بالزوار؛ يقضون فيها بعض الوقت، أما زهاد البوذية فيعتكفون طوال اليوم والليل في المعابد. وأبدى رغبته في إيصالنا - إن رغبنا - إلى أشهر المعابد البوذية عندما نصل إلى كولمبو لنشاهد بأنفسنا..

واصلنا طريقنا في العاصمة. استغرق منا الطريق ساعة كاملة من جنوب العاصمة إلى وسطها حيث فندقنا..

معبد كيلانيا راجا

فندقنا هذه المرة هو فندق (جراند أورينتال) Grand Oriental Hotel يقع في مواجهة الميناء تماما وهو عبارة عن قصر قديم، لا يقل عمره عن خمسين ومائة عام كما هو مدون على لوحة رخامية في صالته.

ودعنا سائقنا بعد هذه الرحلة، واتفقنا معه على أن نلتقي صبيحة الغد. طلب منا أن نحدد له الساعة التي سنبدأ فيها جولتنا لأنه الليلة لن يسكن معنا في فندقنا؛ بل سيقضيه مع أسرته على مسافة قريبة من كولمبو، واتفقنا على الساعة التاسعة صباحا.

بعد أن تسلمنا غرفنا لاحظنا أن الشمس بدأت تميل إلى الاصفرار مؤذنة بالوداع. خرجنا إلى الشارع العام واستوقفنا سيارة أجرة من نوع (توك توك) وأريناه العنوان الذي نقصده؛ معبد (كيلانيا راجا) Kelaniya Raja

Maha Vihara وصلنا المعبد مع الغروب، وكان مزدحما بالبوذيين المواطنين، والسائحين من الدول البوذية الآسيوية مثل تايلند والصين وفيتنام؛ يحيون ليلة منتصف الشهر القمري، ومعهم عدد من السائحين الغربيين جاؤوا - مثلنا - للفرجة لا العبادة.

تبدأ الزيارة بخلع الأحذية وإيداعها لدى القيّم على الصناديق المخصصة لذلك، ثم بدخول المعبد. هناك يتناولون من الشموع بقدر ما يعبر عن محبتهم للبوذا، ويوقدونها، ويقفون أمام التماثيل المتعددة ينحنون أمامها بيدين مضمومتين، ويتلون أذكارهم. وجدنا في زوايا من المعابد من أخبرنا عنهم سائقنا من قبل؛ زهاد البوذيين الذين يقضون نهارهم وليلهم في المعبد في خشوع وانقطاع عن العالم الخارجي!

يقدس الأهالي هذا المعبد بسبب زيارة بوذا له بعد ثماني سنوات من وصوله لمرحلة التنوير، ويقطن فيه حاليا رئيس الكهنة البوذيين. أعيد بناؤه وتجديده في النصف الأول من القرن العشرين، ويشتهر باللوحات الأصلية التي تمثل الأحداث المهمة في حياة بوذا، إضافة إلى تمثال كبير له يبلغ طوله ثمانية عشر قدما.

سهرة في الفندق

عدنا إلى فندقنا، فيوم سيرلانكا ينتهي غالبا مع غياب الشمس، وأفضل مكان للسهر هو الفندق؛ لا سيما أننا نسكن في منطقة مستهدفة - هي المنطقة الدبلوماسية - وقريبة من مبنى التجارة الدولي، ومقابلة للميناء، ولذلك لا نصل لفندقنا إلا بعد سلسلة من الحواجز الأمنية.

صعدنا لتناول طعام العشاء في مطعم الفندق. المطعم يحتل الطابق الأخير ومواجه تماما للميناء. كان الفنار يشعل أنواره والحركة خفيفة في الميناء، وبصيص السفن القادمة والمغادرة يعطي المكان جلالا وجمالا.

غيرنا مكاننا بعد العشاء إلى الملهى الليلي بالفندق. الملهى له باب من خارج الفندق للغرباء، أما نحن - ساكني الفندق - فلنا منفذ من داخل الفندق ودون رسوم. اتخذنا مكاننا. لم يكن وجهانا مألوفين من بين مرتادي الملهى، فكان أول سؤال توجهه لنا النادلة بعد أن اتخذنا مقعدينا: من أين أنتم؟!

أوصلت النادلة لمسؤولي الملهى نبأ الوجود العربي فقدموا لتحيتنا وأحبوا أن يجاملونا بما يرضي ذوقنا، فأداروا لنا أغنية الشاب خالد الجزائري "عبدالقادر يابو علم"!.

في الثامنة صباحا تناولنا طعام الإفطار في المطعم الرئيس الذي كنا فيه ليلة البارحة. كانت الحركة في الميناء أنشط، وعمال التحميل والتنزيل أكثر حركة، والبواخر المقبلة والمدبرة لا عدد لها. وبعد ساعة كان سائقنا أمام باب فندقنا على أهبة الاستعداد.

نقمبو

لم نكن رتبنا وجهة محددة، لكن سائقنا اقترح علينا أن يأخذنا إلى (نقمبو) Negombo. نقمبو هذه مدينة صغيرة وإن شئت - بناء على مساحتها - قلت إنها قرية للصيادين فهي تقع على البحر.. وهي قريبة جدا من مطار كولمبو فلا تبعد أكثر من خمس عشرة دقيقة عنه، ولذا فهي المكان المفضل لمن قدموا ليلا وسيبدؤون جولتهم صباح اليوم التالي شمالا أو شرقا، أو للذين أنهوا جولاتهم في جمهورية سيرلانكا وأحبوا أن يكونوا قريبين من المطار ليتفادوا ازدحام الطريق من كولمبو؛ لا سيما في صباحات أيام العمل.. وهي مكان مثالي لمن يستهويهم الهدوء والاسترخاء بعيدا عن صخب المدن.

سلك بنا قائدنا طريقا زراعيا، فكان معظم طريقنا بين حقول خضراء، لا تنقطع منها حركة الفلاحين والفلاحات، وبين الفينة والفينة يطل علينا البحر وكأنه يثبت وجوده..

وصلنا المدينة الصغيرة، ومررنا بسوقها الشعبي، ثم بسوق السمك، ومراكب الصيادين، ومررنا بشوارعها التي لا تختلف عن أية مدينة مررنا بها من حيث تعدد دور العبادة المختلفة لكل الطوائف والأديان.. مسجد، كنيسة كاثوليكية، كنيسة بروتستانت، معبد هندوسي، معبد بوذي..

ارتفعت الشمس في كبد السماء فبحثنا عن فندق على الشاطئ لنقضي فيه سحابة نهارنا. دخلنا أحد الفنادق المزروعة على الشاطئ كأشجار جوز الهند، واتجهنا مباشرة إلى حديقته الشاطئية، وتحت أشجار جوز الهند، وأمام المسبح اتخذنا مقعدنا، وتناولنا الشاي السيرلانكي التقليدي، وما لبث أن جاءنا أحد النادلين ليعلمنا أن الغداء سيفوتنا إن لم نبادر.. انتقلنا إلى المطعم، واخترنا من أنواع الأسماك التي عرفناها من خلال تجربتنا في الأيام الماضية..

مظلات للوقاية من البشر

عدنا أدراجنا إلى فندقنا في كولمبو مع طريق المطار السريع ولم يكن سريعا بسبب كثافة المرور.. في المنطقة الدبلوماسية التي نقطنها كانت الحواجز الأمنية أكثر تأهبا من المعتاد، وحين وصلنا الفندق علمنا أن عملية انتحارية نفذها قبل قليل بالقرب من موقعنا نمور التاميل!..

كان ما يزال في النهار بقية. خرجنا إلى شارع قريب من فندقنا وهو شارع (لاكسالا) Laksala الشارع المختص ببيع التحف والتذكارات والهدايا. ابتعنا شيئا منها، وعندها كانت الشمس تميل نحو الغروب، فوجدنا الفرصة سانحة للاستمتاع بمنظرها في الواجهة البحرية. اتجهنا إلى شاطئ (كولمبو

فورت) Colombo Fort ثم إلى (جالي فيس) Galle Face. كانت المنطقة تعج بالمتنزهين من السكان المحليين.

في الجهة المقابلة للبحر ما يشبه المدرجات الرياضية، يبدو أنها أقيمت ليستفاد منها في أثناء المناسبات الوطنية والأعياد لمشاهدة الفعاليات والعروض. امتلأت هذه المدرجات بالشباب من الجنسين. كان كل زوج منهم يختفيان خلف مظلة يدوية، يوهمان الناس أنهما يحتجبان من الشمس، وهما في الحقيقة يحتجبان عن أعين الفضوليين، لأن المظلات ظلت مشرعة حتى بعد أن انغمس قرص الشمس كليا في مياه بحر العرب!

في الجامع

اليوم التالي كان يوم الجمعة قلنا لسائقنا اليوم سنصلي الجمعة. وسألناه إن كان يعرف مسجدا جامعا. نعرف أنه لا جمعة لنا ونحن مسافرون، لكن بما أننا تعرفنا على المعابد البوذية والهندوسية والكنائس؛ فلم لا نشهد المسلمين وهم يؤدون صلاتهم؟!..

أخذنا سائقنا إلى مسجد جامع في منطقة مزدحمة في وسط المدينة، وقال إنه لن يستطيع إيقاف السيارة بالقرب من الجامع، فاتفقنا على أن نهاتفه بعد أداء الصلاة ليأتي لنا بالسيارة.

لم نر متسولين طيلة أيامنا الماضيات، إلا عددا منهم رأيناهم في الأماكن السياحية، كانوا يبذلون جهدا يستحقون عليه ما يعطون، كأن يقدموا عزفا على آلة موسيقية، أو ألعابا بهلوانية أو يتسلقوا جذع شجرة جرداء، أو يبيعوا شيئا غير ذي بال، لكننا ما إن ترجلنا من سيارتنا إلا وجموع المتسولين يمدون أيديهم مبتدئين بكلمة (السلام عليكم)!

واصلنا طريقنا بين جموع المصلين والمتسولين، ووجدنا زحاما شديدا على الباب الذي قصدنا.. لم يكن هذا باب الجامع، بل باب ضريح أحد الأئمة.. أمضينا وقتا نتأمل عباد الله يدعون عبدالله ويسألونه من فضله! ماذا

نستطيع أن نقول أو نفعل؟ ليس لنا إلا أن نحمد الله على أن هدانا للحنيفية السمحاء!..

غيرنا طريقنا نحو باب الجامع. المسجد نظيف من الداخل، أرضيته من السيراميك الأبيض وغير مفروش. لا بد أن أرض المسجد تركت من غير فراش لغاية ما!.. وجدنا المصلين قد اتخذوا أمكنتهم في الصفوف الخلفية وتركوا عددا من الصفوف الأمامية. كان منظرنا - أنا وسليمان - محرجا ونحن نؤدي تحية المسجد وحدنا في الصف الثالث. اخترنا الصف الثالث كحل وسط، ولو أردنا الصف الأول لتقدمنا إليه، لكنا توقعنا أن يكون محجوزا لمسؤولين أو لهدف نجهله! وما هي إلا لحظات حتى امتلأت الصفوف الخالية بمصلين يرتدون الزي الأبيض الذي سبق أن رأينا طلاب مدرسة جالي يرتدونه في مدرستهم ومسجدهم؛ الثوب الأبيض والعمامة البيضاء الخفيفة الملفوفة على الطريقة الإماراتية.

دخل الخطيب، واعتلى منبرا مرتفعا جدا، ثم تقدم إليه المؤذن -بعد أن رفع النداء - وناوله عصا معدنية يتناسب طولها مع ارتفاع المنبر، وبدأ خطبته باللغة العربية.. كانت خطبة موجزة بليغة، دعا فيها للخلفاء الأربعة، وأتبع ذلك بعدد من أئمة الصوفية، منهم صاحب القبر الذي بقربنا.. وبعد أن أنهى خطبته بالعربية تقدم إليه المؤذن وتسلم منه العصا، ونزل درجات المنبر، فتوقعت أن تُقام الصلاة، لكن الخطيب ما لبث أن اتجه إلى منبر آخر قصير، وبدأ خطبة أخرى باللغة السنهالية، حتى إذا انتهى أقيمت الصلاة وصلينا.. وبعد الصلاة لم يتحرك أحد حتى أنهى الإمام الأذكار، والمصلون يرددون معه، وبعدما قضيت الصلاة انتشر الناس..

خرجنا نبحث عن سائقنا، وحينما حضر مررنا بمنطقة من مناطق التسوق الشعبي تسمى (بتَّا) Pettah عرض علينا أن نتجول فيها بعض الوقت، ونبهنا إلى ضرورة الانتباه لمحافظنا وجيوبنا وسط الزحام.

المنطقة شبيهة تماما بـ (البطحاء) في الرياض في ازدحام أزقتها وحوانيتها.. تجولنا قليلا وخرجنا، ليوصلنا سائقنا إلى فندقنا.. وأذنا له بالانصراف على أمل أن نلتقيه في صباح الغد ليوصلنا إلى المطار عائدين إلى مملكتنا الحبيبة.

قبل وداع كولمبو

تبقى من النهار متسع لزيارة معلم آخر لم نزره بعد ألا وهو مركز التجارة العالمي World Trade Center الذي افتتح في الثاني عشر من أكتوبر من عام 1997 الواقع في المنطقة التجارية المركزية بالعاصمة، حيث البنوك، والفنادق فئة خمس النجوم، والمكاتب الحكومية، والمحلات التجارية، والمطاعم.

وهو أطول مبنى في سريلانكا، إذ يبلغ ارتفاعه مائة واثنين وخمسين مترا، ويتألف من برجين متجاورين، وتشغل طوابقه الشركات المحلية والعالمية، والمتعددة الجنسيات.

في الصباح الباكر ودعنا فندقنا.. وودعنا الأراضي السيرلانكية بعد رحلة ظريفة اكتشفنا فيها لؤلؤة المحيط الهندي. كانت هذه الرحلة فاتحة رحلات متتاليات كان أولاها برفقة أسرتي بعد أقل من ثلاثة أشهر..

***

الرحلة الثانية

فيتنام

تمهيد

تقع فيتنام Viet Nam على خليج (تونكين) Tonkin وبحر الصين الجنوبي جنوب شرقي آسيا. يحدها من الشمال الصين، ومن الشرق خليج تونكين وبحر الصين الجنوبي، ومن الجنوب بحر الصين الجنوبي، ومن الغرب لاوس وتايلاند وكمبوديا. عاصمتها (هانوي) Hanoi في الشمال، ومن أكبر مدنها (سايجون) Saigon التي تغير اسمها إلى (هوشي منه) Ho Chi Minh تيمُّنا بقائدهم هوشي منه. ويسكنها تسعين مليونا معظمهم يدين بالبوذية، ويوجد بها القليل من المسلمين والمسيحيين. وعلى الرغم من أن مساحتها لا تتجاوز (330000كم2) إلا أن المسافة بين أقصى شمالها وأقصى جنوبها تصل إلى ألفي كيل لأن خارطتها طولية على شكل شبيه بحرف (S).

اختارت فيتنام وجهة لتجربة جديدة في السفر لما قرأت عن طبيعتها الساحرة، والأعداد الهائلة من السياح الأجانب الذين يتجولون من شمالها إلى جنوبها، ومن جنوبها إلى شمالها، مع تغلغل في وسطها وأطرافها، يقابل ذلك قلة في معرفة السياح العرب بها وارتياد أرضها.

الذين يقاربونني في العمر عاشوا سنين عددا يتردد على مسامعهم أخبار الحرب التي هزمت فيها الولايات المتحدة الأمريكية بعد محاولة مستميتة منها لفصل فيتنام إلى دولتين؛ شمالية وجنوبية، لكن الله قيض لأهلها زعيمهم المحبوب منهم جميعا (هوشي منه) ليقود البلاد إلى معركة حاسمة مع الأعداء المتكالبين عليها. ومع أن الانتصار لم يتحقق إلا بعد وفاته ببضع سنين إلا أن خططه الحربية، وقيادته كانت سببا في إنجاز النصر بعد ذلك. وقد كافأه أبناء الشعب الفيتنامي في جزئيه الشمالي والجنوبي. ففي الجنوب غيروا اسم مدينة (سايجون) كبرى مدن الجنوب إلى (هوشي منه) تخليدا لقائدهم الشهير. أما في الشمال وتحديدا في العاصمة (هانوي) فقد اعتنوا بجثمانه بعد وفاته؛ فلم يحرقوه كما هي عادتهم مع كل من يتوفى

منهم؛ بل حنطوه ووضعوه في تابوت زجاجي، يتوافد عليه الآلاف يوميا من المواطنين؛ وخصوصا تلاميذ المدارس وطلاب الكليات الحربية والأمنية، إضافة إلى أرتال بشرية لا تحصى من السياح!

كنت قد أعددت برنامجي السياحي منذ عام تقريبا لما نويت زيارة فيتنام في العام الماضي؛ إلا أن انشغالي بالعديد من المهرجانات الثقافية التي شاركت فيها، ومعارض الكتب التي زرتها، اضطرتني لتأجيل الرحلة عاما آخر مما أفادني في المزيد من التخطيط للرحلة.

إلى هوشي منه

كانت رحلتي في الفترة من 29 أبريل إلى 14 مايو 2013 على الخطوط القطرية للرحلات الدولية Qatar Airways والخطوط الفيتنامية للتنقلات الداخلية Vietnam Airlines

أول ما لفت انتباهي عند بحثي عن حجز رحلة السفر هو وجود أكثر من رحلة للخطوط القطرية من وإلى (هوشي منه)، ومثلها من وإلى (هانوي)، مع اختلاف في التوقيت وفي الوقفات ونقاط تحويل الرحلات. ولأنني حجزت منذ وقت مبكر فقد حصلت على أقصر الطرق وأفضل الأوقات وأرخص الأسعار! كنت أعجب لكثرة هذه الرحلات مع ما أعرفه من قلة ارتياد العرب والخليجيين بصفة خاصة لهذه البلاد، لكن تبين أن المسافرين الأوروبيين هم المستهدفون من هذه الرحلات، وهذا ما تأكد لي حينما وصلنا إلى مطار الدوحة، ثم حين أقلعت الطائرة تقل أعدادا من جنسيات لا حصر لها من أوروبية وشرقية.

تذكرت أن جريدة الشرق الأوسط نشرت قبل أكثر من عام عن توقيع اتفاقية بين هيئة الطيران المدني السعودي والحكومة الفيتنامية لتسيير أربع عشرة رحلة أسبوعية بين البلدين ولا أدري ما الذي أجل التنفيذ حتى الآن؟!

كان موعد الرحلة إلى الدوحة في الخامسة إلا الثلث فجرا، ومنها إلى هوشي منه في الثامنة صباحا، بعد توقف لمدة ساعتين لتغيير الطائرة؛ وقد تمكنت - وأنا في منزلي - من طباعة بطاقة صعود الطائرة من موقع الخطوط القطرية الإلكتروني، مما يعني أن أقلص وقت حضوري للمطار قبل الرحلة إلى ساعة واحدة فقط بدلا من ثلاث، فأحظى بفرصة للنوم لبضع ساعات قبل موعد الحضور للمطار.

الوصول إلى مطار هوشي منه

وصلت الطائرة القطرية الثانية بسلام إلى مطار هوشي منه الدولي Tan Son Nhat في الساعة السادسة والنصف مساء بتوقيت فيتنام الذي يسبق توقيت المملكة بأربع ساعات، وخرجت من المطار مباشرة إلى صرافة العملات، ثم إلى مكتب لإحدى الشركات الفيتنامية للاتصالات للحصول على شريحة اتصالات.

قالت لي الموظفة بعد أن اشتريت الشريحة: أتريد أن أحجز لك فندقا وسيارة لتوصيلك للفندق؟

قلت لها: أما الفندق فقد حجزته مسبقا عن طريق الشبكة العنكبوتية، وقد طلبت منهم استقبالي في المطار فدعيني أتصل بهم، فإن لم يكونوا أرسلوا أحدا أخذت منكم سيارة.

واتصلت بالفندق، واعتذرت لي موظفة الاستقبال بأن طلبي لم يصلهم، وأضافت أنه يمكن لها الآن توفير سيارة؟

قلت لها: لا. شكرا..

اتفقت مع موظفة شركة الاتصالات على سيارة بسائق توصلني إلى فندقي في وسط المدينة بتسعة دولارات فقط أدفعها للسائق عند الوصول! وعندما

وصلت للفندق بعد نصف ساعة أريت موظفة الاستقبال نسخة من البريد الإلكتروني الذي بعثته لهم.

قالت: هذا البريد الذي أرسلت إليه قديم. واعتذرتْ.

قلت: لا تعتذري فقد وفرتِ علي ستة عشر دولارا! لأن السعر الذي يتقاضاه فندقكم خمسة وعشرين دولارا، في حين أني لم أدفع سوى تسعة دولارات.

بعد استراحة قصيرة في الفندق والحصول على خارطة البلد وتحديد موقعي وموقع بعض المعالم الشهيرة خرجت في جولة قصيرة إلى شارع Pham Ngu Lao Street الملاصق للفندق الذي يعج بالحركة طوال الليل، ويقع عليه العديد من المطاعم والمقاهي والمحلات التجارية، وعدد لا يحصى من الوكالات السياحية، ثم مضيت للسوق الليلي Night Market الذي لا يبعد كثيرا عن الفندق.

استيقظت في الصباح الباكر، وتناولت طعام الإفطار. كان على المائدة دورقان زجاجيان بهما سائلان مثلجان أحدهما لونه أسود والآخر ضارب إلى الصفرة. ظننت الأول عصير عنب، والثاني عصير تفاح!. فسألت النادل ما هما؟

قال لي: هذه القهوة، وهذا الشاي!

لكنه عرف من تساؤلي أني أرغب في القهوة الأمريكية فأحضر لي قدحا منها.

أما الطبق الرئيس ففي كل بلاد شرق آسيا وجنوبي شرقيها فهو شوربة الشعيرية Noodle ويضاف إليها هنا البصل الأخضر والسبانخ وقطعتين من لحم العجل أو الدجاج، لكني طلبت من التي تقف لتقديم الشوربة عدم إضافة اللحم مطلقا.

لقد لاحظت فيما بعد أنهم يعملون من البصل الأخضر والسبانخ أطباقا متعددة وشهية، ذكرتني بموهبة أهل الشام في عمل الأطباق العديدة من الباذنجان!

معالم سياحية داخل هوشي منه

المعالم السياحية الأثرية كلها، وحتى المعالم الحديثة تتركز في المنطقة الأولى District 1 حيث اخترت سكني، ولذلك لا يحتاج أي معلم لأكثر من ربع ساعة مشيا على الأقدام. فتحت خارطتي وخرجت من الفندق، واتجهت إلى ميدان (سايجون) Saigon Square وهو ميدان جميل يتجمع فيه السكان المحليون لالتقاط الصور التذكارية.

ثم انتقلت بعد ذلك إلى دار الأوبرا Opera House واكتفيت بإلقاء نظرة عابرة إلى محيطها الخارجي، ووجدت لدى مدخلها فتاة سلمتني مطوية عن برنامج الليلة، وهو عبارة عن حفل موسيقي..

سرت بعد ذلك إلى البرج المالي The Bitexco Financial Tower الذي يرتفع إلى مائتين واثنين وستين مترا، ويتألف من ثمانية وستين طابقا، وقد أُعدَّ الطابق التاسع والأربعون منه - وهو المسمى بـ Saigon Skydeck - ليكون مطلا على المدينة الضخمة.

كنت قد راسلت من الرياض وكالة سياحية قريبة من فندقي، واتفقت معها على رحلتين سياحيتين في اليومين التاليين؛ فاتجهت بعد نزولي من البرج المالي إليها لتأكيد حجزي، وعدت منها إلى الفندق في الظهيرة، وجلست في صالة الفندق أجرب القهوة الفيتنامية المثلجة في الوقت الذي انهمر فيه المطر ملامسا الزجاج الخارجي لبهو الفندق..

بعد الغداء وقيلولة قصيرة خرجت إلى حديقة عامة شاسعة وجميلة تسمى Cong Vien Van تحاذي شارع Pham Ngu Lao وتمتلئ بالذين

جاؤوا يمارسون رياضة المشي في المضامير المهيئة لذلك، أو يمارسون التمرينات السويدية على الأجهزة التي تتوزع أرجاء الحديقة. اخترقت الحديقة متجها إلى مسرح الدمى المائي Golden Dragon Water Puppet الذي يقع في الجهة الأخرى منها.. لستُ مولعا بمثل هذا المسرح، ولذا لم أجد فيه ما يلفت النظر سوى امتلاء مقاعده عن آخرها، وبالجنسيات المتعددة من السياح..

حان وقت العشاء، واليوم هو الثلاثون من أبريل وهو يوم النصر للفيتناميين Victory Day ولذلك انتقلت بسيارة أجرة إلى نهر سايجون لأتناول طعام العشاء على ظهر باخرة وسط احتفالات الفيتناميين بالمناسبة، وتحت سماء امتلأت بالألعاب النارية..

معبد كو داي

في صباح اليوم التالي اتجهت إلى وكالة السياحة التي حجزت بوساطتها رحلة اليوم. وفي الثامنة والنصف تماما تحركت بنا حافلة صغيرة تضم بضعة عشر سائحا من جنسيات مختلفة منطلقة إلى منطقة Tay Ninh لمشاهدة معبد The Great Cao Dai وقد توقفنا في الطريق بعد مضي ساعة ونصف تقريبا في استراحة، وكانت محطة التوقف هذه تضم سوقا للتحف والتذكارات والمنسوجات كما هي عادة الجولات السياحية. مكثنا في هذه الاستراحة وقتا أطول من المعتاد بدليل تململ السياح، لكن تبين أن هناك هدفا آخر من إطالة الوقوف هو تمضية جزء من وقت الصباح حتى يكون وصولنا إلى المعبد في وقت صلاة الظهر Noontime prayer service لنشاهد كيف يؤدي مرتادو هذا المعبد طقوسهم.

هذا المعبد من أكبر المعابد في جنوبي فيتنام ومحج لطائفة (الكوديزم) Caodaism وهي الديانة الثالثة في فيتنام بعد البوذية والكاثوليكية الرومانية، وينتمي لهذه الديانة ما بين سبعة إلى ثمانية ملايين فيتنامي، وثلاثون ألف عضو حول العالم.

أجمل ما في هذا المعبد الحدائق الجميلة المحيطة به فضلا عن شكله الخارجي وزخارفه الداخلية، أما من ناحية طقوس عبادتهم فعلى الرغم أن المرشد السياحي وعدنا بأن نرى ما لم نره من قبل من طقوس؛ فلم تلفت انتباهي، لأني رأيت من قبل ما هو أكثر غرابة منها في الهند والنيبال.

أنفاق الفيت كونج

حان وقت الغداء، وانتقلنا إلى مطعم في المنطقة ذاتها، وواصلنا مسيرتنا بعد ذلك إلى منطقة Ben Dinh وتحديدا إلى .Cu Chi Dist لمشاهدة الأنفاق المعروفة بـ Underground Village أو Cu Chi Tunnels التي عاش فيها المقاتلون الفيتناميون المعروفون باسم (الفيت كونج) Viet Cong أيام الحرب، وقاوموا من خلالها الأمريكيين حتى أجبروهم على الرحيل.

تتألف شبكة الأنفاق هذه مما طوله خمسين ومائتي كيل، وقد اتخذها المقاتلون لسكناهم وتعليم أبنائهم وتطبيب مرضاهم وجرحاهم، أما ما فوق الأنفاق فقد امتلأت بالمصائد التي صممها الفيتناميون لاصطياد الغزاة الأمريكيين، وهي عبارة عن حفر يغطونها بالأعشاب لإخفائها. ولما يئس الأمريكيون من الوصول إلى داخل الأنفاق قاموا في السابع من يناير سنة 1966 بمحاولات لتفجيرها بقنابل الـ B52 التي يصل وزن الواحدة منها إلى ثلاثين طنا، ومع ذلك لم يحققوا أي نتيجة؛ بل انتهى بهم الأمر إلى الهزيمة والرحيل..

وطرق الأنفاق مصممة بشكل منخفض جدا، لا يستطيع اجتيازها غير الفيتناميين بأجسامهم الرشيقة التي تعودت على المرور عبرها، وقد تركوا نماذج منها للسياح ليجربوا الدخول عبرها، وهي تجربة شاقة مع أنها لا تتجاوز أكثر من دقيقتين لأن العابر يسير خلالها بشكل زاحف.

بعد انتهاء الجولة هذه في أنفاق كوشي عادت بنا الحافلة من حيث أتينا. ولأن المساء قد حل فقد اكتظت شوارع المدينة بالسيارات، واكتظت أكثر بالدراجات النارية التي خصص لها مسارات محددة في الشوارع الكبيرة.

أمضيت الليلة بالتجوال في المناطق المحيطة بالفندق وعدت مبكرا للخلود للنوم استعدادا لرحلة الغد.

نهر الميكونج

ينحدر نهر ميكونج Mekong River من الصين شمالا مرورا بكل من لاوس ثم تايلاند وكمبوديا، وعند دخوله الجزء الجنوبي الغربي من فيتنام يتفرع إلى قنوات صغيرة تتجه إلى بحر الصين الجنوبي لتصب فيه. هذه الأراضي التي تمتد فيها هذه القنوات هي ما يعرف بدلتا نهر ميكونج Mekong River Delta تصل مساحتها إلى خمسة عشر ألف كيل مربع، وتستغل أراضيها للزراعة؛ لا سيما زراعة الأرز.

أمام السائح عدد من الخيارات للتجوال في منطقة الدلتا هذه بحسب ما يتوفر لديه من وقت، فهناك رحلات لثلاثة أيام وليلتين، يكون المبيت في الليلة الأولى على ظهر القارب، والليلة الثانية في منزل إحدى العائلات المحلية. وهناك رحلات ليومين وليلة واحدة غالبا ما يختار السياح المبيت في أحد فنادق مدينة كانتو Can Tho. ولمن لا يملك الوقت الكافي - مثلي - و يريد إلمامة سريعة بالمنطقة فيمكنه أن يأخذ رحلة اليوم الواحد من السابعة والنصف صباحا حتى السابعة والنصف مساء.

بدأنا الرحلة في حافلة سياحية متجهين إلى المحطة الأولى، وهي مدينة Cai Be الواقعة على نهر ميكونج، ووصلنا إليها بعد ثلاث ساعات تقريبا، ومنها انتقلنا مباشرة إلى المركب الذي أخذ طريقه في النهر الذي تنتشر في أنحائه بائعات الخضار والفواكه والأسماك والتحف والهدايا بقواربهن الصغيرة؛ وهو ما يعرف بالسوق العائمة Floating Market.

وصلنا إلى قرية صغيرة، وترجلنا من قاربنا لنجد أنفسنا في معرض للمنتوجات المحلية مثل الفواكه والشاي والعسل، والصناعات المعتمدة على المنتجات الزراعية مثل الخبز والكعك والحلويات، إضافة إلى الهدايا التذكارية.

بدأنا بعد ذلك جولة أخرى في القنوات المائية الصغيرة التي لا يجدي معها قاربنا الكبير نسبيا ولذلك توزعت مجموعتنا في قوارب صغيرة جدا ومقوسة، وهي المعروفة بـ Banana Boat لا تتسع لأكثر من أربعة ركاب، وتعتمد قيادتها على التجديف اليدوي. توقفنا ونزلنا من القوارب الصغيرة وسرنا خلف مرشدنا بين الحقول، إلى أن خرجنا إلى قرية بها فندق صغير من نوع Guest House تناولنا فيه طعام الغداء تحت ظلال أشجار الفواكه المنوعة.

كان أمامنا متسع من الوقت بعد الغداء للمزيد من الفعاليات، فمنا من قام بالتجوال على الأقدام في هذه القرية، ومنا من استخدم الدراجات الهوائية أو النارية، ومنا من آثر الراحة فاسترخى تحت أشجار الفاكهة على إحدى الأرجوحات الشبكية Hammock المعدة لذلك.

عند الثالثة والنصف عدنا بقواربنا الصغيرة إلى منطقة متسعة في وسط النهر حيث يقف مركبنا لنستقله إلى مدينة Vinh Long لنتجول في سوقها الشعبي قليلا قبل أن نستقل حافلتنا عائدين إلى مدينة هوشي منه التي وصلنا إليها في السابعة والنصف مساء، ولم يبق بعد هذه الجولة الطويلة إلا أخذ قسط من الراحة استعدادا ليوم آخر.

القرية الصينية

هذا هو اليوم الأخير في هوشي منه وقد خصصته لزيارة أهم المعالم المتبقية في هذه المدينة. بعد تناول طعام الإفطار اتجهت بسيارة أجرة إلى القرية الصينية في المنطقة الخامسة من المدينة China Town, Dist.5

وهي عبارة عن حي صيني تزدحم طرقاته بالحوانيت، وفي جزء من هذا الحي سوق شعبي كبير هو Benh Tay Market مكون من طابقين، وهو مخصص لمبيعات الجملة، إلا أنه يمكن الشراء منه بالقطعة. غير أن المشكلة في السوق - غير ازدحام البشر - هو كثرة العربات المحملة بالبضائع وحركة العتالين الذين يحملون على أكتافهم صناديق البضائع المختلفة، ويبدو أنهم يعدون هذا السوق مخصصا لهم، ولذلك لا يبالون بالمتسوقين أو المتنزهين والمستكشفين، فهم لا يُنذرون أحدا، ولا ينبهونه ولا يتوقفون، وعلى العابرين اتخاذ الحيطة والحذر!

متحف مخلفات الحروب

وبسيارة أجرة أخرى انتقلت من السوق متوجها إلى أشهر معالم هوشي منه - بل لعله من أهم المعالم في فيتنام كلها - ذلكم هو متحف مخلفات الحروب War Remnants Museum لكني حين وصلت إلى المتحف كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرا وهو موعد راحة العاملين حتى الواحدة والنصف.

وجدت الكثير من أصحاب سيارات الأجرة، وقائدي الدراجات النارية وكلهم انتهز فرصة إغلاق المتحف ليعرض خدماته على السائحين بنقلهم إلى معلم سياحي آخر يقضون فيه وقتا ريثما يفتح المتحف بعد ساعة ونصف، ووجدت شابا يقود دراجة عادية تسمى (سايكلو) cyclo وهي دراجة هوائية ذات ثلاث عجلات، في مقدمتها كرسي مهيأ لجلوس الراكب يعلوه مظلة للوقاية من الشمس والمطر. فتح الشاب خارطة سياحية ليعرض عليّ توصيلي إلى أي معلم من المعالم القريبة؛ ولأنه لم يتبق في خطتي غير معبد Mariamman Hindu Temple وكنت أنوي زيارته بعد خروجي من المتحف لأنه يقع على طريقي إلى الفندق؛ فقد طلبت منه أن يوصلني إليه، ففعل، ولم يكن فيه ما يستحق الزيارة، إلا أن الممتع حقا هو تمضية ساعة ونصف في التجوال بالمدينة على متن الـ (سايكلو) في جو غائم حتى الواحدة والنصف حين عدت إلى المتحف.

أنشئ هذا المتحف في مبنى المقر السابق لوكالة المعلومات الأمريكية United States Information Agency ليكون مركزا توثيقيا لجرائم الحرب وما خلفته من دمار لفيتنام أرضا وسكانا. افتتح في الرابع من سبتمبر سنة 1975 تحت مسمى Exhibition House for US and Puppet Crimes. وفي عام 1990 عدل الاسم ليصبح Exhibition House for Crimes of War and Aggression . وبعد تحسن العلاقات مع الولايات المتحدة سنة 1995 حذف من الاسم ما يشير إلى الجرائم والعدوان ليصبح الاسم الحالي: (متحف مخلفات الحروب) War Remnants Museum

تربض في الساحات الخارجية للمعرض بعض طائرات الهليكوبتر والمقاتلات والمدرعات والدبابات وراجمات القنابل. أما في الداخل فيتكون المبنى الرئيس من ثلاثة طوابق؛ تعرض نسخا من الصحف العالمية الصادرة آنذاك، وصورا عديدة التقطت من قبل المصورين العالميين للمشوهين من جراء الحرب. لقد أصبح هذا المتحف - الذي يزوره نصف مليون سنويا ما بين سائح ومواطن - بمثابة جرس إنذار للعالم كله ليتعظ من الحروب، وليتعرف على ويلاتها وآثارها المدمرة. وكم تمنيت أن يزور هذا المتحف كل الذين يقرعون طبول الحرب في كل أرجاء العالم.

بعد قرابة ساعتين خرجت من متحف مخلفات الحروب متجها إلى الفندق سيرا على الأقدام، لكن الأمطار المباغتة اضطرتني للدخول إلى أقرب المطاعم لتناول وجبة الغداء الذي نسيته بسبب ما شاهدنه من صور جرائم الحروب المؤذية.

وبعد تناول طعام الغداء كان المطر قد توقف فاتجهت إلى فندقي، وقبل الوصول إليه تجولت في أشهر أسواق هوشي منه Ben Thanh Market ليكون آخر المحطات قبل مغادرة هذه المدينة!

التخطيط لما بعد هوشي منه

في مخططي بعد هوشي منه زيارة كل من مدينتي (دالات) Dalat و(ناترانج) Nha Trang لمدة يومين لكل منهما. ومع كثرة العروض السياحية لهاتين المدينتين؛ إلا أنني لم أجد ما يتلاءم مع وقتي وهدفي، فبعض هذه الرحلات يضيف مواقع أخرى ليست من اهتمامي، أو يختصر الجولة اختصارا مخلا. وقد نصحتني المسؤولة في الوكالة التي نظمتْ لي رحلتَيْ أنفاق كوشي ونهر الميكونج - وكانت نصيحتها في محلها - بأن أحجز الفنادق فقط وأشتري تذكرة بالحافلة إلى دالات، ومن هناك أشتري تذكرة إلى ناترانج. أما الرحلات السياحية فإن كل فندق يوفر رحلات سياحية لمدة يوم واحد تغطي معظم المعالم الشهيرة في المدينتين، وهذا أقل تكلفة من تفصيل رحلة خاصة.

اشتريت تذكرة السفر من الوكالة السياحية الكائنة بفندقي، ثم فتحت جهاز الحاسب الآلي، وأجريت بحثا عن الفنادق المتوفرة في المدينتين، وحجزت عن طريق إحدى الوكالات (الإنترنتية). ولا أنكر فضل موظفة الاستقبال في الفندق الذي أسكنه حيث اختارت لي الموقع الأفضل للسكن في المدينتين.

إلى دالات

عند السابعة والنصف صباحا كنت قد أنهيت إفطاري، كما أنهيت إجراءات مغادرة الفندق، في الوقت الذي وصل مندوب الوكالة السياحية لنقلي إلى محطة الانطلاق في الحافلة الكبيرة إلى مدينة دالات.

وعلى الرغم من أن المسافة بين هوشي منه ودالات لا تزيد عن ثلاثمائة وعشرة أكيال إلا أن الرحلة استغرقت ثماني ساعات بالتمام والكمال. ويعود ذلك إلى أن الطريق في كثير من أجزائه جبلي وبه منحنيات كثيرة، وحتى إذا استقامت الطريق فإن السائق لا يتجاوز السرعة المحددة

للسيارات الكبيرة (40 كم/ ساعة) وحسب النظام أو العرف - لست متأكدا - فإن السائق يتوقف بعد كل ساعتين من السير لراحته وراحة الركاب، ويكون ذلك دائما في محطة مهيأة بكل ما يريح المسافر مع خدمة سريعة تتناسب ووقت المسافرين.

تقع دالات إلى الشمال من مدينة هوشي منه، وكانت في الأصل استراحة للمستعمرين الفرنسيين. تتميز ببرودة طقسها، إذ ترتفع عن سطح البحر 1475 مترا، وفيها بحيرات وشلالات وغابات، وفيها نسخة مصغرة من برج (إيفل) في منطقة السوق المركزية، وكان الفرنسيون يسمونها Le petit Paris أي (باريس الصغرى).

في الرابعة والنصف مساء توقفنا في محطة الحافلات الرئيسية في مدينة دالات، وركبت سيارة أجرة قاصدا فندقي، واستقبلتني المدينة الوادعة بزخة من المطر.

بين البحيرة والجبل

يقع الفندق الذي اخترته لسكني غير بعيد من بحيرة (كسوان هونج) Xuan Huoong Lake وهي واحدة من بضع بحيرات تحيط بدالات. ما إن دخلت الفندق حتى بادرتني موظفة الاستقبال بتخييري بين أن تكون غرفتي مطلة على البحيرة أو الجبل، ولأني قادم من الصحراء؛ قلت لها من فوري: البحيرة!

قالت: لا تستعجل. سنريك الغرفتين لتختار.

وحتى بعد أن رأيت الغرفتين اخترت الغرفة المطلة على البحيرة متجاهلا نداء الجبل الأخضر من قمته إلى أخمص قدميه، وفيما بعد وفي شرفة الغرفة وُلدت قصيدتي "البحيرة والجبل" التي أقول في مطلعها:

وجّهتُ وجهي للبحيـــــــــــرة تاركا خلفي الجبلْ

وجــه البحيـرة آســرٌ يحكي ازرقاقا في المقل

والطـود أخضـر فاقع من رأســه حتى الســهل

فاحتـرتُ ما بين ازرقا قٍ واخضرارٍ ما العمل؟!

ما إن تخلصت من وعثاء السفر، واطلعت على البرامج السياحية المتوفرة لمشاهدة معالم المدينة، واخترت أحدها لبرنامج الغد حتى انطلقت جهة البحيرة، وكانت الشمس قد غربت، فاستمتعت بجولة على الأقدام. توقفت لدى بائعات الذرة المشوية، وجلست في أحد المقاهي على ضفة البحيرة الجميلة وقد عطر المطر الأجواء، وسكبت المصابيح الخافتة أشعتها على وجه البحيرة.

بعد حوالي الساعة، وفي طريق العودة إلى فندقي - وقبل أن أصل إليه - رأيت الطاولات قد رصت في حديقة خارجية لأحد الفنادق الكبيرة، وأضيئت الأضواء، وانطلقت الموسيقى، وعلقت لوحة كبيرة تعلن عن وجود بوفيه عشاء بسعر 65000 (دونج) أي ما يعادل اثني عشر ريالا فقط! كان المكان مزدحما بالسكان المحليين؛ ليس بسبب السعر المنخفض فحسب، بل لأننا في مساء السبت.

جولة في معالم دالات

في الثامنة صباحا وصلت الحافلة السياحية التي أقلتني مع مجموعة من السياح، وانطلقنا في جولة على معالم المدينة السياحية والأثرية، ومناظرها الطبيعية التي تخلب الألباب.

كانت أولى محطات التوقف في قصر(بو دي) Palace of Bao Dai وهو آخر ملوك فيتنام (1913 - 1997) ويحتل الرقم (13) في السلسلة.

كان قد اعتلى عرش ولاية Annam سنة 1932 إبان الحكم الفرنسي للبلاد لكنه اضطر للتنازل عن العرش في سنة 1945 بعد سيطرة اليابانيين.

يقع القصر على رابية عالية ويحيط به حدائق غناء، ويحتوي - ككل قصور الملوك البائدين - على مقتنيات ثمينة من أثاث ورياش مع التركيز على مظاهر البذخ. ويوجد في غرفة الاستقبال كرسي كبير كان مخصصا لجلوس الملك، وأصبح متاحا للسياح اعتلاؤه الآن لأخذ صور تذكارية، كما توجد غرفة ملابس الملكة يمكن للسائحات اختيار ما يردن من ملابس تراثية شبيهة بملابس الملكة لالتقاط الصور التذكارية. والقصر ليس كبيرا فهو يتألف من طابقين ويمتاز الطابق العلوي منه بكثرة الشرفات.

بعد خروجنا من القصر ذهبنا إلى حديقة عامة كبيرة تسمى (وادي الحب) Valley of Love وهي عبارة عن جبل طبعي مهدت الطرق للسير في جنباته، وصنعت سلالم ليست عالية من قمته إلى سفحه حتى يمكن النزول إلى البحيرة أسفل منه. ولأن اليوم الأحد فقد شاهدنا العديد من العرسان الذين أتوا للاستمتاع بلحظات جميلة والتقاط الصور التذكارية.

بعد وادي الحب حان وقت الغداء فاتجهنا إلى مطعم جميل ذي إطلالة على الجبال الخضراء تناولنا فيه طعامنا، ومن ثم انتقلنا إلى شلال (داتانلا) Datanla Waterfall.

الطريق إلى الشلال يتطلب استخدام طريق مدرج طويل يغري جماله بالسير فيه نزولا دون التفكير في طريق العودة، لكنْ هناك حل آخر لمن لا يستطيع الصعود فيما بعد، وهو ركوب العربات المنزلقة على القضبان!

كان هذا الشلال ختام هذه الجولة السياحية في هذه المدينة الجميلة. عدت مساء إلى الفندق لأخذ قسط من الراحة، ثم خرجت إلى بحيرة كسوان

هونج للاستمتاع بأنفاس البحيرة وأضوائها، وتناول طعام العشاء في أحد المطاعم الملاصقة لمياهها.

في الصباح الباكر أنهيت إجراءات مغادرة الفندق في انتظار السيارة التي ستأخذني إلى محطة الحافلات العمومية في طريقي إلى وجهتي القادمة.

إلى ناترانج

في الثامنة صباحا انطلقت بنا الحافلة إلى مدينة (ناترانج) الساحلية Nha Trang التي تبعد عن دالات بما يقارب المائة والأربعين كيلا. وحسب قوانين السير في فيتنام فسرعة الحافلات محددة بأربعين كيلا في الساعة، وتتوقف كل ساعتين، مما يعني أن الرحلة تستغرق حوالي أربع ساعات. الطريق كان في بدايته جبليا ذا انحناءات كثيرة لكنها ليست خطيرة؛ ربما لأن الجميع يتقيد بالسرعات المحددة، أما بعد أن قطعنا نصف المسافة فقد انبسط الطريق وامتدت على جنباته حقول الأرز والفواكه مما أبعد سآمة السير السلحفائي.

في الثانية عشرة تماما وصلنا إلى محطة الحافلات في ناترانج، وبسيارة أجرة انتقلت إلى الفندق الذي كنت قد حجزت فيه ليلتيّ القادمتين. صعدتُ إلى غرفتي في الدور الخامس، وفتحت النافذة بعد أن أزحت الستارة عنها، فاستقبلني البحر بزرقته ونسيمه، وبدت لي من خلفه الجبال الخضراء وكأنها تحرسه أو تحرس الذين يمخرون عبابه!

الوقت ثمين في هذه البلدة الساحرة، فكل دقيقة يجب انتهازها للاستمتاع بجمالها؛ لا سيما شاطئها الذهبي، ولذلك لم أضيع كثيرا من الوقت في الاستراحة من عناء السفر. استعرضت البرامج السياحية المتوفرة في مكتب استقبال الفندق، فوجدت برنامجين؛ أحدهما إلى جزيرة Vin Pearl وهي جزيرة كبيرة بها مدينة للألعاب المائية تستغرق الرحلة إليها يوما

كاملا لكبر حجمها وتعدد أنشطتها. أما البرنامج الثاني فهو رحلة لأربع من الجزر. وقد فضلت الأخير فأتممت حجزه ليوم الغد.

شاطئ ناترانج

انطلقت مباشرة إلى شاطئ ناترانج أبث لـه أشواقي وحنيني، وأشكو لـه ما عانيته في سبيل الوصول إليه.

في أحد المطاعم المنتشرة على الشاطئ اتخذت مكاني في مواجهة البحر مستقبلا نسماته الساحرة، وأنا أتناول طعام الغداء سمكة مشوية أخمن أنها كانت قبل ساعات تسبح وادعة مطمئنة في مياهه!

بعد الغداء اتخذت طريقي في شارع تران فو Tran Phu Street الموازي للبحر متأملا جمال الشارع تارة، وشاخصا ببصري إلى البحر وأمواجه والجزر الخضراء وراءه.. مررت على طريقي بمجمع تسويقي تجولت فيه قليلا، ثم تقدمت إلى سوق شعبي لا يختلف كثيرا عن الأسواق الشعبية التي رأيت نماذج منها في هوشي منه ودالات. عدت أدراجي مع شارع الشاطئ نفسه، ولكن هذه المرة عبر الشاطئ الرملي حتى إذا دنت الشمس من المغيب اتخذت مكاني ملقيا عليها نظرة الوداع!

في طريق عودتي لسكني بعد الغروب اكتشفت شارعا صغيرا، ممتدا من الشاطئ إلى شارع الفندق، وقد رَصَّت المطاعم والمقاهي موائدها على جانبيه، وسط حوانيت صغيرة لبيع المستلزمات السياحية؛ من ملابس وتحف وتذكارات. عدت إلى هذا الشارع بعد ساعتين من الراحة في الفندق، وأمضيت فيه وقتا جميلا قبل الخلود للنوم.

جزر ناترانج

في صباح اليوم أخذتني حافلة صغيرة مع مجموعة من السياح إلى الميناء، وهناك انضم إلينا أكثر من مجموعة، ثم صعدنا إلى أحد المراكب الراسية وقد تجاوز عددنا الأربعين من مختلف الجنسيات، وانطلق بنا المركب إلى المحطة الأولى وهي جزيرة صغيرة بها (أكواريوم) Aquarium صغير

جدا، ولا يتوافر فيه أنواع كثيرة من الكائنات البحرية الغريبة كالتي تشاهد في أماكن مشابهة من العالم.

بعد ذلك انتقلنا بمركبنا إلى جزيرة (مون) Mun Island وهي جزيرة صغيرة هُيئ شاطئها للغوص Snorkeling لمشاهدة الأسماك الملونة؛ فبمجرد أن وطئت أقدامنا أرض الجزيرة استُقبلنا بعدة الغوص، كما أعدت المقاعد والمقاهي لمن أراد أخذ قسط من الراحة ومراقبة الغواصين.

بعد ساعة - وبعد أن انتصف النهار - صعدنا إلى المركب وإذ بطاقمه قد أعادوا ترتيب مقاعدنا على شكل مائدة مستطيلة صُفت عليها عشرات الأطباق الصغيرة من مختلف ألوان الأطعمة. تناولنا غداءنا، ثم رفعت الأطباق، وبدأ البرنامج الترفيهي مع المرشد المهرج، أو ما يسمى بالـ Funky Monkey Guide هذا المهرج يدعي معرفته بكل الدول والجنسيات ويحفظ بعض العبارات من لغاتهم، فيسأل السائح من أي بلد هو، ثم يحييه بلغته، ويطلب منه تأدية أغنية بلغة بلده ليردد المستمعون، لكنه حين سألني عن بلدي لم يعرفها ولا لغتها، فتركني وشأني والحمد لله!

وحين اقتربنا من جزيرة Mot Island بدأ برنامج ترفيهي من نوع آخر وهو (البار العائم) Floating Bar. وزعت سترات وأطواق النجاة على من يريد المشاركة، وأخذوا يلقون بأنفسهم في مياه البحر، وشرع القائد المهرج يوزع عليهم أقداح النبيذ والبيرة، ومن لم يشارك في البرنامج - مثلي - فقد اكتفى بالمشاهدة من ظهر المركب.

اتجهنا بعد ذلك إلى المحطة الأخيرة من الرحلة؛ وهي شاطئ (تران) Tranh Shore وهو شاطئ أكثر مرتاديه من السكان المحليين، وهنا أمضينا أكثر من ساعة مستمتعين بالبحر سباحة ومشاهدة واسترخاء، حتى إذا صعدنا للمركب في طريقنا إلى الميناء الذي أتينا منه؛ وزعت علينا أطباق متعددة من شتى ألوان الفاكهة. وصلنا إلى الميناء في حوالي الرابعة والنصف، وصعدنا الحافلة التي أخذت توزعنا على فنادقنا..

أخذت قسطا وافرا من الراحة بعد عناء هذا اليوم وأمضيت جزءا من الليل في الشارع الصغير المزدحم بالحوانيت والمطاعم والمقاهي الذي أمضيت فيه ليلة البارحة، وقبل أن أنام أكدتُ على موظفة الاستقبال تأمين سيارة لي في الصباح لنقلي إلى مطار ناترانج حيث موعد رحلتي على متن الطائرة الفيتنامية Vietnam Airlines إلى هانوي العاصمة.

تيك نيات هان

ما إن أنهيت إجراءات مغادرة الفندق في الثامنة صباحا إلا وسيارة الفندق تقف بالباب.. ركبت السيارة في طريقي للمطار الذي يستغرق الوصول إليه خمسا وأربعين دقيقة.

ولأنه ما زال لدي متسع من الوقت قبل الصعود للطائرة فقد أمضيت بعض الوقت متجولا في مطار ناترانج الصغير. دلفت إلى مكتبة في أحد الأركان، فعثرت على ما كنت أبحث عنه من قبل ولم أعثر عليه. إنه أحد مؤلفات الروائي الشاعر الفيلسوف الفيتنامي (تيك نيات هان) Tich Nhat Hanh وهي رواية True Love. كنت قد بحثت عن كتب (هان) في المدن الفيتنامية التي سبق أن زرتها، وفوجئت أن بعضهم لا يعرفه.

سألت صاحب المكتبة الصغيرة في مطار ناترانج: لِمَ يجهل الكتبيُّون الفيتناميون فيلسوفهم الشاعر الروائي؟

أجابني بعبارة صدمتني - باعتباري شاعرا كاتبا - : "نحن شعب نهتم بالتقنية، ولا نهتم أبدا بالروايات والشعر"!

دعوني أعرض عليكم شيئا مما كتب (تيك نيات هان) لتحكموا أينا على حق؟ أنا أم الفيتناميون؟

"When another person makes you suffer, it is because he suffers deeply within himself, and his suffering is spilling over. He does not need punishment; he needs help. That's the message he is sending".

حينما يجعلك أحدهم تعاني فإن ذلك بسبب أنه يعاني هو نفسه.. إنه ليس في حاجة للعقاب بل بحاجة للمساعدة.. هذه هي رسالته التي يرسلها..

"Sometimes your joy is the source of your smile, but sometimes your smile can be the source of your joy".

أحيانا يكون سرورك مصدر ابتسامتك.. ولكن أحيانا تكون ابتسامتك هي مصدر سرورك.

"To be beautiful means to be yourself. You don't need to be accepted by others. You need to accept yourself".

أن تكون جميلا يعني أن تكون - أنت - نفسك. لست بحاجة إلى أن يتقبلك الآخرون. عليك أن تقبل نفسك..

هانوي

في منتصف النهار هبطت بنا الطائرة في العاصمة هانوي Hanoi بعد مضي ساعة ونصف قطعنا خلالها (1278) كيلا على متن الخطوط الفيتنامية Vietnam Airlines

خرجت من المطار مباشرة وإذ بمندوب الفندق الذي حجزت فيه مسبقا يرفع لوحة باسمي وباسم الفندق. ركبنا السيارة وانطلق بنا إلى الفندق. بعد ساعة من الزمن توقف بنا السائق في أحد الأزقة وأشار إلى الفندق! كانت

واجهته لا توحي بأنني قد أحسنت الاختيار، لكن خروج السيد (أنتوني) Antoine مدير الفندق لاستقبالي والترحيب الحار بي والجلوس معي في ردهة الفندق والحديث الودي مع طبق من الفاكهة الموسمية والقهوة الفيتنامية المثلجة ريثما أنهى موظفو الاستقبال إجراءات التسجيل؛ كل ذلك زادني طمأنينة إلى أن اختياري كان في محله.. كنت قد تعرفت على أنتوني من خلال مراسلات بيننا بعد حجزي الفندق عن طريق إحدى الوكالات السياحية الإلكترونية، فبمجرد أن أتممت حجزي وصلتني رسالة منه على بريدي الإلكتروني يرحب بي باسمه وباسم منسوبي الفندق، ويعرض ما لديه من برامج سياحية.

كنت مهتما بجولة في خليج (هالونج) Halong Bay لمدة ثلاثة أيام، فعرض علي مستويات متعددة لهذه الرحلة مرفقة بالأسعار، وطلب مني ألا أستعجل في قبول العرض حتى أصل وأقارن سعره بغيره من الوكالات.

حين تسلمت مفتاح الغرفة أخذه مني ورافقني للطابق السابع - وهو الأخير - حيث غرفتي وبدأ في تشغيل الأجهزة: المكيف، التلفاز، اللابتوب، وأشار إلى كيفية استخدام صندوق الأمانات Safe Deposit Box ثم فتح الشرفة (البلكونة)، لكنه نبهني إلى ضرورة إغلاقها قبل أن أنام ليلا، فسألته عن السبب.

أجاب: خشية اللصوص!.

قلت له: أنا في الطابق السابع. كيف للصوص أن يصلوا إلى غرفتي؟

قال: يتسلقون!

قلت: وهل سبق أن حصل مثل هذا؟

قال: نعم حدث مرة واحدة.

قلت له: أغلقها إذن. لن أفتحها مطلقا!

وقد كرر هذا التنبيه موظف الاستقبال حين اتصلت به في منتصف الليل لأطلب منه إيقاظي صباح الغد، فقال:

تأكد أنك قد أغلقت البلكونة!

مع أنني قد أمضيت عشرة أيام متنقلا بين عدد من المدن الفيتنامية لم ألحظ أي مظهر يثير المخاوف. ربما للعاصمة ظروفها!

بعد ساعة من الراحة وتصفح الإنترنت من خلال (اللاتوب) نزلت إلى ردهة الفندق في طريقي للخروج، فاستقبلتني موظفة الاستقبال بخارطة للعاصمة هانوي، وأشارت إلى موقعي واتجاهي.

كنت قد اتفقت مع أنتوني في جلستنا قبل قليل على برنامج سياحي ليوم الغد عبارة عن جولة في معالم المدينة لمدة يوم. ثم رحلة في اليوم الذي يليه لخليج هالونج لمدة ثلاثة أيام وحجز غرفة لليوم الأخير في الفندق نفسه بعد عودتي من الخليج.

بحيرة هوان كيم

خرجت من الفندق إلى كاتدرائية جوزيف St.Joseph`s Cathedral المجاورة للفندق والتي يعود تاريخ بنائها إلى سنة 1886. ثم انتقلت بعد ذلك مشيا إلى بحيرة (هوان كيم) Hoan Kiem التي لا تبعد عن الفندق سوى خمس دقائق. هذه البحيرة هي المكان المفضل للأهالي وللسياح على السواء، فعلى جنباتها وتحت أشجارها الكثيفة يحلو المشي أو الجري وممارسة ألعاب القوى أو الاسترخاء في أحد المقاهي أو المطاعم المنتشرة على جوانبها. ولصغر مساحتها فإن دورة كاملة حولها على الأقدام لا تستغرق أكثر من نصف ساعة، وهذا ما شجعني على إتمام دورة كاملة حولها متجاهلا الإشعارات المتتالية من المعدة بحلول موعد الغداء! بعد

إكمال الجولة اتخذت مكاني في أحد المطاعم المطلة على البحيرة وتناولت طعام الغداء..

كانت بحيرة هوان كيم تسمى بحيرة (المياه الخضراء) لكنها فيما بعد عرفت ببحيرة (السيف المستعاد) Lake of the Returned Sword فكما تقول الأسطورة إن الامبراطور Emperor Le Loi كان مبحرا في البحيرة حين سقط منه سيفه السحري المسمى (إرادة السماء) Heaven's Will والتقطته سلحفاة اختفت فور الإمساك به ولم يعد لهما أثر؛ لا السيف ولا السلحفاة، على الرغم من المحاولات العديدة للعثور على أي منهما. ومنذ ذلك الحين يقام احتفال سنوي بهذه المناسبة لعل أحدهما يظهر!

وعلى الرغم من صغر مساحة البحيرة إلا أن فيها جزيرتين؛ الأولى في الركن الشمالي الغربي وتسمى Jade Island يحتلها معبد صغير يسمى Temple of the Jade Mountain يصل الزوار إليه بواسطة جسر مطلي باللون الأحمر. والجزيرة الثانية في وسط البحيرة وفيها بناء مرتفع على شكل برج يسمى The Turtle Tower نسبة إلى السلحفاة التي اختطفت سيف الإمبراطور!

بعد الغداء عدت أدراجي للفندق لأستريح فيه حتى المساء. ثم خرجت مساء لأقوم بجولة أخرى في الشوارع التجارية القريبة من الفندق، فشاهدت جنديا يركض خلف لص هارب، ويعود ممسكا به، وهنا فقط تأكدت لي مخاوف أنتوني وصدق روايته ورؤيته!

مجمع هوشي منه

في اليوم التالي ومنذ الصباح الباكر بدأت جولة في معالم العاصمة ضمن مجموعة من السياح في حافلة سياحية. بدأنا الجولة من مجمع القائد الفيتنامي الشهير (هو شي منه) Ho Chi Minh Complex نزلنا من

الحافلة ومضينا سيرا على الأقدام بعد أن اتفق معنا مرشدنا بأن يقابلنا عند الباب الآخر المخصص للخروج.

كانت الساعة حوالي التاسعة صباحا حين دخلنا في صف بشري لا نرى نهايته، وكانت الشمس قد بدأت في تسخين أشعتها المرسلة إلينا؛ إلا أن الممرات كلها كانت مظللة فتجنبنا أشعة الشمس المباشرة، لكنا فوجئنا بحرارة الطقس؛ مما اضطر الواقفين إلى استعمال المراوح اليدوية لتلطيف الجو. كانت الطوابير الطويلة هذه مراقبة من قبل ضباط وجنود لملاحظة هيئة الزوار والتأكد من حشمة ملابسهم، وكذلك لمنعهم من الحديث أو الضحك أو الجلوس أو الخروج من الصف! وإلى جوارنا كانت أرتال استعراضية أخرى للضباط والجنود، وأرتال أخرى لطلاب الجامعات المدنية والعسكرية، ثم تلاميذ المدارس الابتدائية بأزيائهم الموحدة. مكثنا في هذا الصف ما يقرب من خمس وأربعين دقيقة حتى وصلنا إلى التابوت الزجاجي الذي يقبع فيه قائدهم هوشي منه.

قال لنا المرشد ونحن نخرج من المكان: إن الفيتناميين عادة ما يحرقون جثث موتاهم، ولكنهم احتراما وتقديرا لقائدهم لم يحرقوه ولكن حنطوه ووضعوه في التابوت الزجاجي ليظل خالد الذكر، وحاضرا في الأذهان وماثلا للعيان!

وقد أشرت إلى هذا في قصيدتي التي كتبتها فيما بعد بعنوان "حوار مع فيتنامية":

لم تحرقوا جسمه بعد الممات كما

جـرت عوائدكم مع سائر البشر

أبقيتموه بتابـوت الزجـاج لكـي

تظل ذكراه مثل النقش في الحجر

خرجنا من ضريح هوشي منه إلى مكان مجاور، ألا وهو المقر الذي كان يسكنه (هوشي منه) بالقرب من القصر الرئاسي Ho Chi Minh presidential palace وهو منزل متواضع يضم غرفة نومه وغرفة المطالعة وغرفة للاستقبال، إضافة إلى غرفة الطعام والمطبخ. لاحظت وجود طبق واحد على مائدة الطعام فتذكرت أن (هو شي منه) أمضى حياته عزبا.

قلت للمرشد: أظنه لم يتزوج قط؟

قال: نعم.

كان إلى جواري إحدى السائحات - أظنها بريطانية الجنسية - سألتِ المرشد: وهل لديه أولاد؟

فتطوعتُ بالإجابة: بالتأكيد لا.

قالت: ليس بالضرورة!

معالم أخرى

بعد ذلك انتقلنا إلى (معبد العمود الواحد) One Pillar Pagoda وهو يقع بالجوار من الموقعين السابقين. ويعد من أشهر المعابد البوذية في هانوي على الرغم من صغر حجمه. بناه الإمبراطور (لي تاي تونج) Emperor Ly Thai Tongtd الذي حكم بين سنتي 1028 و1054. لم يكن لدى الإمبراطور (لي) أولاد، وذات ليلة رأى في المنام أن البوذا يقدم له طفلا، فتزوج فتاة ريفية رزق منها بطفل ذكر كما رأى في الحلم، فقرر - اعترافا وامتنانا لهذا البوذا - أن يبني هذا المعبد وكان ذلك سنة 1049. بناه من الخشب على عمود حجري واحد قطره متر وربع وسط بركة من زهور

اللوتس. وقد أعيد ترميمه على مر العصور لكنه ظل محافظا على هذا الشكل والحجم.

انتقلنا بعد ذلك إلى معمل ومعرض لمنتجات ذوي الاحتياجات الخاصة من الأعمال اليدوية، كالمنسوجات والتحف الخشبية والمصنوعات الجلدية. والملفت للانتباه هو أسعار البيع في هذا المعرض، فعلاوة على أن المعروضات مسعرة بالدولار؛ فهي مرتفعة جدا مما اضطر السائحين للمغادرة دون الحصول على شيء منها..

وبعد خروجنا من هذا المعرض انتقلنا إلى معرض آخر للوحات الفنية والمشغولات الزجاجية مكون من طابقين، فيه أعمال فنية رائعة..

حان وقت الغداء فانتقلنا إلى مطعم سياحي تناولنا فيه غداءنا، ومن ثم توجهنا إلى متحف السلالات البشرية الفيتنامية Vietnam Museum of Ethnology. تعرض في هذا المتحف الألوان المختلفة من حياة الأعراق الفيتنامية البالغ عددها أربعة وخمسين عرقا.

يتكون المبنى من طابقين يشاهد الزائر فيهما مختلف مظاهر الحياة الفيتنامية من نشاطات وحرف، ويقف على ما لديهم من عادات وتقاليد، كما يشاهد تنوع الأزياء للرجال والنساء، وأثاث المنازل والأواني والآلات التي كانوا يستخدمونها في حياتهم اليومية، وكلها مصنوعة من خامات البيئة كالخشب والقش وأغصان الأشجار. وهناك أجنحة للفنون الشعبية، وفيها تظهر الآلات الموسيقية المنوعة. وأما الفناء الخارجي للمبنى فقد عرضت فيه نماذج مختلفة الأشكال والأحجام لمنازل الفيتناميين حسب أعراقهم ومناطق سكناهم ومهنهم.

معبد الآداب

بعد متحف الأعراق البشرية ركبنا حافلتنا متجهين إلى أقدم جامعة للفلسفة والآداب. إنها معبد الآداب Temple of Literature الذي أنشئ عام 1070 في عصر الملك (لي نيان تونج) Ly Nhan Tong تخليدا للفيلسوف الصيني (كونفوشيوس) Confucius. تضم هذه الجامعة أجنحة متعددة تشكل قاعات للدراسة والامتحانات، وتقام فيها الاحتفالات في المناسبات المختلفة. وقد ظلت منذ إنشائها حتى عام 1779 موئلا للحكماء والعلماء والفلاسفة. وفي سنة 1802 أنشئت أكاديمية جديدة في العاصمة الجديدة (هيو) Hue فانتهى العصر الذهبي لمعبد الآداب. ولأهمية هذا المعلم وتخليدا له طبعت صورته على ظهر ورقة النقد ذات المائة ألف دونج.

وهذه لمحة يسيرة عن كونفوشيوس:

ولد كونفوشيوس في عام 551 ق.م. في بلدة (شانتونك) من ولاية (لو) في شمال الصين. مات أبوه وهو طفل فعاش مع أمه في فقر شديد، وعندما كبر عمل موظفا في الحكومة، ثم اعتزل العمل الحكومي وأمضى ستة عشر عاماً من عمره يعظ الناس متنقلا من مدينة إلى مدينة، واستطاع أن يكوّن عددا كبيرا من الأتباع. و لما بلغ الخمسين من عمره عاد إلى العمل في الحكومة، ولكن بعض الحاقدين تمكنوا من طرده من الوظيفة، فترك لهم البلاد كلها. وأمضى بعد ذلك ثلاثة عشر عاما مبشرا متجولا. ثم عاد ليقيم في بلدته خمس السنوات الأخيرة من عمره. وتوفى سنة 479 ق.م

ولم يكن يرى تناقضا بين الفلسفة والزواج، فقد تزوج في التاسعة عشرة من عمره، لكنه طلق زوجته وهو في الثالثة والعشرين.

ومذهبه ليس دينا؛ فهو لا يدعو إلى إله، وإنما ينصبُّ مذهبه على السلوك الاجتماعي والسياسي. فيدعو إلى حب الناس وحسن معاملتهم والرقة في

الحديث والأدب في الخطاب ونظافة اليد واللسان، وعلى احترام الأكبر سنا ومقاما، وعلى تقديس الأسرة وطاعة الصغير للكبير، والمرأة لزوجها. ويؤمن بأن الحكومة أنشئت لخدمة الشعب لا العكس.

كان يحن إلى الماضي ويدعو الناس إلى الحياة فيه، فلقي بعض المعارضة خاصة من الحكام. وقد اشتدت هذه المعارضة بعد وفاته ببضع مئات من السنين، عندما ولي الصين ملوك أحرقوا كتبه وحرموا تعاليمه. لكن ما لبثت تعاليمه أن عادت أقوى مما كانت عليه وانتشر تلاميذه وكهنته في كل مكان. واستمرت فلسفته تتحكم في الحياة الصينية قرابة عشرين قرنا، أي من القرن الأول قبل الميلاد حتى نهاية القرن التاسع عشر بعد الميلاد.

أساطير البحيرة الغربية

انتقلنا بعد ذلك إلى أكبر بحيرة في هانوي، ألا وهي (البحيرة الغربية) West Lake التي تتميز بشاطئ طوله سبعة عشر كيلا، ويحيط بها العديد من الحدائق والفنادق والأبراج العالية، ولأهمية هذا الموقع وارتفاع أسعار العقارات فيه؛ فقد أصبح المنطقة المفضلة للأثرياء من الفيتناميين وغيرهم من الوافدين عليها.

لا تخلو حياة الشعوب - لا سيما البوذيين - من الأساطير. فمن الأساطير التي تحاك حول هذه البحيرة أسطورة تقول إن البحيرة كانت في الأصل فرعا من النهر الأحمر Red River وأنها تشكلت على إثر حرب بين Lac Long Quan وروح ثعلب ذي تسعة أذيال، وهذا ما يفسر تسميتها بـ Fox Corpse Swamp أي (مستنقع جثة الثعلب).

والأسطورة الأخرى تقول إنها تشكلت أثناء بحث الجاموس عن عجلها المختفي، ولذلك تسمى بـ (بحيرة الجاموس الذهبية) Golden Buffalo Lake.

وفي القرن الحادي عشر كانت البحيرة تسمى بحيرة الضباب Foggy Lake وتغير اسمها في عام 1573 إلى الاسم الحالي West Lake.

وفي وسط البحيرة جزيرة؛ بها أقدم معبد في فيتنام Tran Quoc Pagoda الذي يعود بناؤه إلى القرن السادس، وإلى جانبه معبد Quan Thanh Temple

نهاية الجولة كانت إلى معبد Temple of the Jade Mountain في بحيرة هوان كيم التي كنت فيها بالأمس. ولأن فندقي قريب من البحيرة فقد ودعت رفاق رحلة اليوم متجها إلى الفندق لأخذ قسط من الراحة استعدادا لجولة ليلية قبل النوم وفي انتظار رحلة الغد.

خليج هالونج

في الثامنة صباحا انطلقت بنا الحافلة السياحية إلى مدينة (هالونج) Halong الواقعة على خليج (تونكين) Tonkin شرق العاصمة هانوي، على مسافة ما يقرب من مائة وستين كيلا. توقفنا في منتصف الطريق في استراحة كالمعتاد لمدة عشرين دقيقة، فوصلنا في حدود الثانية عشرة والنصف. صعدنا فور وصولنا إلى المركب الراسي في الميناء، واستقبلنا طاقمه بالحفاوة والترحيب، ووزعت علينا مفاتيح الغرف (الكبائن) مع كؤوس العصير الطازج.

المركب مؤلف من طابقين وسطح، والكبائن عبارة عن غرف مريحة لا تختلف في شيء عن غرف فندق فاخر، فكل التجهيزات الأساسية متوفرة.

بعد نصف ساعة دعينا للاجتماع في مطعم المركب، وبدأ المركب في الإبحار في خليج هالونج Halong Bay فيما كنا نتناول طعام الغداء المكون من العديد من الأطباق البحرية الشهية!

يحتوي هذا الخليج على أرخبيل يتكون من 760 جزيرة، وهو مسجل في قائمة اليونسكو للأماكن السياحية والأثرية، ويعد من بين أفضل عشرة خلجان في العالم. وحينما تطرق المرشد للحديث عن الخليج وعدد الجزر فيه وأوصلها إلى ألفين لم أعجب من كبر الرقم بعدما شاهدت جزرا ليست الواحدة منها إلا صخرة صغيرة الحجم.

كهف سانج سوت

بعد ساعة من الإبحار تقريبا توقف بنا المركب، وانتقلنا إلى قارب متوسط الحجم أخذنا إلى كهف Sung Sot Cave أو Surprise Cave الواقع في جزيرة Bo Hon Island وهو من أكبر كهوف المنطقة. يحتاج الوصول إلى عمقه لصعود حوالي مائة عتبة بين أغصان الأشجار وتحت تسربات المياه من الأسقف. يتسرب ضوء الشمس إلى داخل الكهف من خلال الشقوق العلوية لكنها غير كافية لإنارة المكان، ولذلك انتشرت المصابيح الكهربائية الباهتة والملونة لتضفي على المكان سحرا وجمالا. يشبه هذا الكهف في تضاريسه وتكويناته إلى حد كبير جبل (قارة) في واحة الأحساء شرقي المملكة العربية السعودية؛ إلا أن جبل قارة خال من الماء والنبات..

كما قلت من قبل لا تخلو حياة الفيتناميين من الأساطير. من بعض التشكيلات الصخرية يطل شكل يشبه فارسا يحمل سيفا طويلا في يده؛ تقول الأسطورة إن البطل الأسطوري Thanh Giong حارب الأرواح الشريرة والشياطين التي كانت تخيف أهل المنطقة، وبعد انتصاره غادر إلى السماء تاركا هذه الصخرة لترعب الشياطين لو حاولوا ثانية إخافة الأهالي.

ليلة على ظهر مركب

بعد هذه المشاهد البانورامية انتقلنا بالقارب الصغير إلى حيث مركبنا ليبحر بنا، حتى إذا وصل إلى منتصف خليج هالونج توقف بنا بين العديد من

الجزر الخضراء؛ الصغير منها والكبير، فصعدنا جميعا إلى سطح المركب لنستمتع بمشاهدة المناظر التي تأسر الألباب؛ ولا سيما منظر غروب الشمس. لكن الغيمات كانت تتسابق لتحجب عنا ضوءها وأشعتها وكأنها تقول لنا إنها أولى منها بالمشاهدة!

دعانا طاقم المركب للمشاركة في إعداد طعام العشاء. أما الماهرون والماهرات فشاركوا مشاركة حقيقية، وأما الباقون فشاركوا في إعداد أصابع الكرنب (الملفوف) Vegetable spring rolls وهي من أشهر الأطباق الصينية.

أعدت المائدة، وتناولنا طعام العشاء، وصعدنا ثانية للسطح. كما افتقدنا الشمس لحظة الغروب افتقدنا القمر فقد كانت الليلة هي ليلة الثلاثين من الشهر القمري! ومع ذلك فقد كان النسيم البحري العليل مغريا بالبقاء أكثر من النزول للبرنامج الترفيهي الذي بدأ في الطابق الأول من المركب، ولو أنهم انتقلوا ببرنامجهم إلى سطح المركب لحظي بمشاهدة أكثر ومشاركة أكبر!

لفت انتباهنا طاقمُ المركب قبل النوم إلى أن من يريد مشاهدة شروق الشمس فليخبر مكتب الاستقبال لإيقاظه في الخامسة والنصف، ولأني نمت مبكرا فلم أكن في حاجة لمن يوقظني، فقد استيقظت قبل ذلك، وانتظرت الشمس ساعة كاملة، لكن السحب مرة أخرى منعتها من الظهور في وقتها كما منعتها بالأمس وقت الغروب!

نزلت إلى غرفتي في الطابق الأرضي محاولا النوم ساعة قبل موعد الإفطار.. أغلقت مفتاح التكييف، وفتحت النافذة الكبيرة للاستمتاع بالنسيم البحري، وكأني فتحت النافذة لبائعات السوق العائمة بقواربهن الصغيرة اللائي أخذن يغرينني بنداءاتهن وإلحاحهن بالشراء. ربما كنت المستيقظ الوحيد من بين القاطنين في الطابق الأرضي من المركب!

في الغابة على الأقدام

حان وقت الإفطار فاجتمعنا على المائدة. تناولنا طعامنا يحيط بنا البحر من كل جانب، وقمنا بعد ذلك بتسليم غرفنا لتهيئتها لمن سيحتلها من بعدنا.. وصعدنا إلى ظهر المركب الذي بدأ يمخر عباب البحر منطلقا إلى مدينة (كات با) Cat Ba التي تحتل أكبر جزر هذا الأرخبيل. نزلنا في ميناء المدينة، وركبنا حافلة انتقلنا بوساطتها إلى الحديقة الوطنية National Park وهي غابة طبيعية تنمو على صفحة جبل Ngu Lam. البرنامج المعد لنا هو الوصول إلى قمة هذا الجبل مشيا على الأقدام Trekking مع دليل. تستغرق الجولة حوالي الساعتين ويتنافس السياح في الوصول للقمة. منهم من يصل، وأكثرهم يعود بعد أن يقطع جزءا من الطريق بحسب ما تسمح به إمكاناته الجسمية والصحية.

حين بدأنا الجولة قال لنا المرشد إن للصعود للقمة طريقين: طريقا سهلا وطريقا صعبا، وعليكم الاختيار وسيكون مع كل فريق دليله.. اخترت رأسا الطريق الأسهل، وافترقنا في مجموعتين. صار من حظنا مرشدة رشيقة القوام قصيرة؛ يبدو أنها في الأربعين، وإن كان من الصعب أن تقدر أعمار الفيتناميين والفيتناميات!

حين افترقنا إلى طريقين واكتشفت عجوز استرالية - من أصل مالطي - بأننا في الطريق السهل صرخت قائلة:

أنا أريد الطريق الصعب!

قالت لها المرشدة: أنتِ امرأة كبيرة وسمينة لن تستطيعي حتى اجتياز الطريق السهل!

بعد خطوات بدأنا في الصعود وإذ بأحد المساعدين يسلم كلا منا عصا غليظة أعدها من الأغصان القوية للاتكاء عليها ولها مآرب أخرى!.. بدأنا في الصعود شيئا فشيئا وبدأت الاسترالية تسأل المرشدة:

كم بقي على القمة؟! وهل سنعود من هذا الطريق نفسه؟

أخذت المرشدة تضحك عليها كلما توقفت، وكلما رأت جسمها ينضح بالعرق قالت لها: قلت لك أنتِ سمينة ولذا لا بد أن تتعبي!

نظرت إليها الاسترالية وهي تقف بجوارها لتسندها وقالت لها مداعبة: لأول مرة أشعر بالزهو حين وقفت جوارك فقد تبين لي كم أنا عملاقة.. في استراليا يُنظر إلي بوصفي قزمة!..

توقفنا قليلا للراحة. قالت العجوز: أنا سأنتظر هنا حتى تعودوا وننزل معا، أو سأعود أدراجي!

نظرتْ إليّ المرشدة وكأنها تسأل: ما رأيك؟ هل ستواصل الصعود؟ أم نعود معا؟

قلت لها - وأنا أكثر من الاسترالية رغبة في النزول - : لن نتركها لوحدها.. فلننزل معا!..

بدأنا رحلة النزول وفجأة توقفت الاسترالية تشير إلى شيء ما في الأرض. قالت المرشدة وهي تضحك: إنه ثعبان. انتبهوا لا تعترضوا طريقه! توقعت أن تضرب رأسه بالعصا، لكن يبدو أنهم يتعايشون مع الثعابين ولا يقتلونها!

وصلنا إلى السفح قبل أصحابنا الذين اختاروا الطريق الصعب، فكان لدينا متسع من الوقت لغسل وجوهنا وملابسنا من العرق، وتناول شيء من عصير النارجيل!

في مدينة كات با

عدنا أدراجنا إلى مدينة (كات با) وأخذ المرشد يوزعنا على الفنادق التي اختارتها لنا الشركة السياحية. كانت غرفتي في الطابق التاسع مطلة مباشرة على شاطئ المدينة وميناء الصيد، ومن خلفهما تبدو جزر هالونج الخضراء!

تناولت الغداء في مطعم الفندق في الدور الحادي عشر مع زملاء الرحلة أمام هذا المنظر البانورامي!

بعد الغداء ركبنا الحافلة إلى الميناء، ومن ثم عبرنا بالقارب خليج (لان ها) Lan ha Bay إلى (جزيرة القرود) التي عرفت بهذا الاسم لكثرة القرود التي تعيش فيها.

لهذه الجزيرة شاطئ رملي مهيأ للسباحة والاسترخاء، وفي الجهة المقابلة جبال تغطيها غابة كالتي كنا فيها بالأمس لكن طرقها غير مذللة للصعود والتجوال داخلها. وبعد جولة على الشاطئ أخذت كرسيا في المقهى قبالة البحر، وإذ بالعديد من الفتيان والفتيات ترتفع أصواتهم وضحكاتهم فالتفت جهة الصوت وإذا بهم يلاعبون عددا من القردة فوق أغصان الأشجار المحيطة بالمقهى فيعطونها شيئا من قناني المرطبات وعلبها، ويضحكون عليها وهي تمسك القنينة أو العلبة فتشرب وتسكب محتواها على رؤوس المشاهدين. لم يغرني المشهد فأنا ابن الطائف ومنطقة الهدا السياحية حيث اعتدت مشاهدة القرود التي يستمتع الكثير من الزوار والسياح بإطعامها وتأمل حركاتها البهلوانية!

قبل الغروب عدنا إلى مدينة كات با، وقضيت شطرا من الليل في شارع الشاطئ والشوارع المتفرعة منه. لحسن حظي فاليوم السبت وقد أقيم بجوار فندقي مهرجان شعبي للتسوق والمرح، فإلى جانب الأصناف المختلفة من البضائع هناك مسرح للفنون الشعبية وفي جانب منه ألعاب

للصغار والكبار. أمضيت في هذا المهرجان شطرا من الليل قبل أن أعود أدراجي إلى الفندق..

العودة إلى هانوي

في الثامنة صباحا أخذتنا الحافلة إلى الميناء لنستقل مركبا شبيها بالمركب الكبير الذي أمضينا فيه اليوم الماضي، وأخذَنا المركب في خليج هالونج متوجهين إلى (هالونج) المدينة، لكن ببطء شديد لنستمتع بمشاهد متعددة ومتجددة للخليج. وفي وسط البحر توقف المركب وانتقلنا منه إلى قوارب صغيرة لتأخذنا في ممرات مائية ضيقة بين صخور خضراء تعد كل واحدة منها جزيرة. ومن ثم عدنا إلى مركبنا لننتقل إلى مدينة هالونج حيث تناولنا طعام الغداء مع أفواج لا حصر لها من السياح..

بعد الغداء تم توزيعنا من جديد على الحافلات. كان نصيبي حافلة صغيرة من نوع الميكروباص، ولم يبق من رفقتي في الأيام الماضية سوى القليل. الجالس بجواري لم أره من قبل. بدأت الحديث معه - باللغة الإنجليزية - للتعارف وقطع الوقت وفوجئت أنه تونسي ترافقه زوجه، جاءا لغرض السياحة من باريس حيث يسكنان. وبدلا من أن نتحدث عن فيتنام وما شاهدناه فيها أخذنا الحديث عن تونس وثورة الياسمين وآمال إخوتنا التونسيين وتطلعاتهم. كان هو أول وآخر من قابلت من العرب منذ وصولي إلى فيتنام!

قبل الغروب وصلت إلى فندقي الذي تركته قبل ثلاثة أيام وأخذت مفتاح غرفتي. أخذت قسطا من الراحة، ومن ثم خرجت إلى سوق الليل Night Market وهو عبارة عن أكشاك مؤقتة لبائعين متجولين يسمح لهم بإقامتها في ليالي العطلة الأسبوعية فقط في شارع يمتد من غرب بحيرة هوان كيم وسط المنطقة القديمة Old Quarter

بعد الجولة والتسوق من سوق الليل اتجهت إلى بحيرة هوان كيم. لقد زرتها أكثر من مرة لكن زياراتي لها كانت نهارا، أما في الليل فلها طبيعة ساحرة إذ تضفي الإضاءات المسلطة على مياهها من عشرات المقاهي والمطاعم التي تحيط بها منظرا بانوراميا خلابا. اخترت أحد المقاهي المطلة على البحيرة في الطابق الثالث وأخذت مقعدي مستمتعا بالبحيرة وبالحركة الدائبة المختلطة ما بين عربات ودراجات نارية ومشاة..

تذكرت أحد المرشدين السياحيين الذي قال لنا ذات يوم: إن في هانوي عشرة ملايين نسمة، وأربعة ملايين دراجة نارية معظمها من نوع (هوندا)، وسألنا حينها: كيف تعبرون الشارع بين الدراجات النارية؟

قلنا: ننتظر حتى نجد فرصة سانحة!

قال: لا. أفضل طريقة هي أن تغمض عينيك وتسير. لا تنتظر الدراجة النارية حتى تقف، ولا تنظر إلى قائدها. اقطع الطريق وكأنه خالٍ، فقائد الدراجة يعرف طريقه حتما!..

يوم العودة إلى الوطن

استيقظت متأخرا قليلا - بعكس الأيام الماضية - إذ لم يكن عندي برنامج سوى العودة إلى بلادي مساء. بعد الإفطار وترتيب أمتعتي خرجت لجولة أخيرة في هانوي استحوذت بحيرة هوان كيم على قسط كبير من الوقت، حتى إذا حان موعد الغداء وكنت حينئذ في ساحة الأوبرا تسلقت مطعما، وأقول تسلقت بكل ما تعنيه الكلمة؛ فالمطعم صغير جدا، لكنه متعدد الأدوار وليس فيه مصعد، وكلما صعدت طابقا وجدت إطلالة أجمل من سابقتها حتى وصلت للسطح! هنا نُصبت المظلات فوق الكراسي في مهب النسيم العليل، ومن تحت البناء بدا ميدان الأوبرا والمناطق المحيطة به.

تناولت غدائي، واتجهت بعد ذلك للفندق لإنهاء إجراءات المغادرة والذهاب للمطار. أمامي ثلاث رحلات: الأولى إلى مطار هوشي منه؛ على متن

الطيران الفيتنامي، والثانية والثالثة من هوشي منه إلى الدوحة، ومن الدوحة إلى الرياض على متن الخطوط القطرية..

في مطار الدوحة وعندما توقفت الحافلة التي أقلتنا من الطائرة إلى صالة القدوم لم ينزل أي راكب، وعندما وصلتْ إلى صالة تحويل الرحلات (الترانزيت) نزلنا جميعا!

في رحلتي من الدوحة إلى الرياض راجعت قصيدتي (حوار مع فيتنامية) التي نظمتها في مدينة (كات با) على خليج هالونج:

قالت: أراكَ كثيرًا دائمَ النَّظَرِ
وتُتْبِعُ النظرةَ الأخرى بلا خَفَرِ

إن كان ذلك مقبولا بموطنكم
فها هنا جُنْحَةٌ تودي إلى الخطرِ

فقلت: لا تعجلي في الحكم وانتظري
تأمَّلي شيبَ رأسي واحسبي عُمُري

فهل لشيخٍ بهذا السِّنِ من أربٍ؟
وهل تخافينَ من كيدي ومن بَطَري؟

(إني امرؤٌ مولعٌ بالحسنِ أتبعُهُ
لا حظَّ لي فيه إلا لذةُ النَّظَرِ)

لكنْ رأيتُ جمالا تَمَّ مَشْهَدُهُ
في الأعينِ الدُّعْجِ ذاتِ الغنجِ والحَوَرِ

وفي قَوَامٍ رشيقٍ ثم جِيدٍ ظبًا
وفي استدارةِ وجهٍ مثلما القمرِ

فرحتُ أسألُ نفسي: أينَ موطنُها؟
وهل أتتْ من بوادٍ أم منَ الحَضَرِ؟!

***

فبدَّدتْ حِيـرتي لمَّا حَكَـتْ ثِقَـةً
قالت: سـأتلو عليكمْ صـادقَ الخـبر

أنا بلادي تَحَـدَّاها العِداءُ ومـا
زالتْ إلى اليومِ مِلْءَ السَّمْعِ والبَصَرِ

قنابلُ (النابَلْمِ) دَكَّتْ كلَّ بُنْيَتِـها
وعاشتِ الناسُ دهـرًا داخلَ الخفـر

كم حاولوا عَبَثًا تمزيقَ وحدتِها
لكنـها خرجـتْ مـن ذلـك الكَـدَرِ

تعرَّضَتْ لِحُروب لا عِدادَ لها
وقادها (هوشي مِنْ) للنصر والظفـرِ

إنْ كنتَ ما زلتَ حتى الآن تجهلُني
مـن (فيتِنامَ) أنـا مـن أعرقِ الأُسَـرِ

***

فقلت: يا بنتَ (فتْنامٍ) دهشتُ بما
سمعتُ من عاطـر الأخبار والسِّـيَرِ

إني تجوَّلْتُ في (فِتْنـام) موطِنِكم
وزرتُ (هوشي مِنَه) في قصرهِ الأثري

لم تحرقوا جسمَه بعد المماتِ كما
جـرتْ عوائـدكم مـعْ سـائر البشـر

أبقيتموه بتابـوت الزجـاج لكـي
تظـلَّ ذكراهُ مثـلَ النقـش في الحجـر

إنـي أُقَـدِّرُ فيكـم عشـقَكُمْ بطـلا
وجعلِـــهِ مثـــلا .. لكـل منتصـــر

***

لكن دعي جانبًا هذا الحديثَ فمـا
بمثـلِهِ تُشـــغلُ الأوقـاتُ فـي السَّـمَرِ

هيّا اقرئي من لذيذ الحرف أغنيةً
أو فاسمعي هلوساتي واقبلي عُذُري:

(فِتْنـام) يا فِتَنًا نامت وأيقظـها
حديثُك العـذب حتى مطلـع السَّـحَر

أحببتكمْ مثلما أحببـتُ موطنكم
فهـل أُلامُ إذا أمعنـتُ في النظـر؟!

كات با - فيتنام 2013/5/11

***

الرحلة الثالثة

أوزبكستان

أمل تحقق

ليس لأوزبكستان شبيه، والسياحة فيها لا تشبه السياحة في أي مكان غيرها. فالسياحة في اوزبكستان هي رحلة تاريخية قبل أن تكون جغرافية، فهي تأخذنا إلى نهري (سيحون) Syr Darya و(جيحون) Amu Darya اللذين كانا ميدانا لصولات الفاتحين والغازين، وتنقلنا إلى المدن التي ظلت راسخة في أذهاننا منذ أن قرأنا أسماءها في كتب الجغرافيا والتاريخ، مثل طشقند وسمرقند وبخارى وخوارزم وترمذ وفرغانة، حيث عاش كبار علماء المسلمين ومفكريهم الذين ظلت أسماؤهم محفورة في ذاكرتنا، أمثال البخاري والخوارزمي والبيروني وابن سيناء والترمذي وغيرهم..

ولذلك لا عجب إن ظللت أترقب الفرصة لزيارة أوزبكستان سنوات طوالا!.. كانت شروط الحصول على تأشيرة الدخول لهذا البلد عائقا أمام القيام برحلتي، إذ أن التشدد في منح التأشيرة يدل على عدم الترحيب بالسائح، والعكس صحيح. وهذا ما لمسته حينما زرت سفارة أوزبكستان مرتين في عامين متتاليين؛ مرة في العام الذي سبق هذه الرحلة، ومرة في عام الرحلة. في المرة الأولى صُددتُ من بوابة القسم القنصلي ولم يُسمح لي حتى بالدخول، وفي المرة الثانية فتحت القنصلية لي قلبها قبل أبوابها.

نالت أوزبكستان استقلالها عام 1991 لكنه ظل استقلالا صوريا فما زالت هيمنة الاتحاد السوفييتي تفرض سلطتها. استقلت هذه الدولة الإسلامية لكنها بقيت في حذر شديد من المسلمين حتى بعد أن سهلت إجراءات الدخول خلال السنوات الماضيات للدول الشرقية والغربية ظلت دول العرب في منأى عن هذه التسهيلات.

في عام 2018 حصل انفراج كبير فقد أعفيت دول عديدة من التأشيرة نهائيا، وسهلت الإجراءات لعدد آخر، ومنحت بعض الدول الحق في الحصول على التأشيرة الإلكترونية.. وقد يكون لتولي (شوكت

ميرزيايوف) Shavkat Mirziyoyev رئاسة الجمهورية خلفا لـ (إسلام كريموف) islam karimov دور في هذه التسهيلات.

ويلحظ المتابع بسهولة المحاولات الجادة لتوثيق علاقة أوزبكستان بالدول الإسلامية في عهد الرئيس الجديد، إذ استضافت مدينة (بخارى) المنتدى الدولي الأول للسياحة الدينية خلال الفترة من 21 حتى 23 من شهر فبراير من عام 2019 برعاية المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ISESCO) ومنظمة السياحة العالمية (WTO) وبتنظيم كل من هيئة تطوير السياحة الأوزبكية، ولجنة الشؤون الدينية بمجلس وزراء أوزبكستان، وإدارة مسلمي أوزبكستان. وشارك في المنتدى ممثلو أربع وثلاثين دولة، منها بعض الدول الإسلامية مثل السعودية ومصر والكويت. ويأتي انعقاد المنتدى في ضوء إعلان مدينة بخاري مركزًا للثقافة الإسلامية لعام 2020م

قرأت خبر إعفاء السعوديين من شروط معقدة سابقة كان من أهمها تقديم خطاب دعوة وحجز فندق شامل مدة الإقامة، مع تقديم برنامج كامل لخط سير الرحلة، شريطة أن يختار السائح خمس مناطق لا يتجاوزها. اتصلت بالسفارة الأوزبكية في الرياض مستفسرا عن صحة ما قرأت فأكد المسؤول ذلك. تقدمت بأوراقي وبعد يومي عمل تسلمت جواز سفري ممهورا بتأشيرة لمدة ثلاثين يوما، وقال لي الموظف المسؤول إنه كان بإمكاني الحصول على تأشيرة الكترونية وبسعر أقل..

بدء الرحلة

أسهل الطرق للوصول إلى أوزبكستان هو الطيران الأوزبكي Uzbekistan Airlines من دبي أو الشارقة لأنه لا يوجد طيران مباشر من المملكة، ولذلك كان لا بد من تذكرتي سفر؛ واحدة من الرياض إلى دبي أو الشارقة على متن ما شئت من الطيران الذي يصل إلى هناك، والأخرى من دبي أو الشارقة إلى طشقند على طيران أوزبكستان.

ومع البحث في مواقع الوكالات السياحية وشركات الطيران لتقليل فترة الانتظار في المطار الوسيط، مع مراعاة فاصل زمني كاف لتغيير الطائرة حجزت رحلتي من الرياض إلى دبي على طيران (فلاي ناس) Fly Nas الإقلاع في السابعة وأربعين دقيقة صباحا، والوصول في العاشرة والنصف، ثم الطائرة الأوزبكية في الواحدة والثلث. أما العودة ففترة الانتظار في مطار دبي أطول قليلا.

والطائرة تحلق بي فوق سماء طشقند تذكرت أقوالا في سبب تسميتها بهذا الاسم، منها أن الاسم مركب من كلمتين هما (شاش) و(قند) وتعني بلد الحجر. أما العرب فسموها بلاد (الشاش) نسبة إلى القبيلة التي استوطنت المنطقة في القرن الخامس قبل الميلاد.

وتداعى إلى ذهني استعمال العرب لفظ (الشاش) اسما للمدينة في أكثر من موضع وشاهد شعري، فقد ذكرها ياقوت الحموي في معجمه، ووصفها الشاعر أبو الربيع البلخي بقوله:

الشاش بالصيف جَنَّة ومن أذى الحر جُنَّة

لكنني .. يعترينـي بهـا من البـرد جِنة

الليلة الأولى في طشقند

وصلت الطائرة الأوزبكية بعد ثلاث ساعات ونصف إلى مطار طشقند في الخامسة من مساء يوم الجمعة السابع من شهر سبتمبر سنة 2018.. نزلنا من الطائرة للمطار الصغير المرتب. أنهيت إجراءاتي بكل يسر وسهولة وخرجت وإذ بسائق الفندق الذي حجزت فيه لياليَّ الأولى في انتظاري.

وصلت لفندق (أوزبكستان) Hotel Uzbekistan كان الاستقبال لطيفا وإجراءات تسليم الغرفة سريعة.. الغرفة جيدة في الطابق الخامس عشر مطلة مباشرة على تمثال (تيمور لنك) الذي يسميه أبناء البلد (أمير تيمور).

في صالة الفندق (اللوبي) مكتب للصرافة ومكتب لبيع شرائح الاتصال أخذت منهما حاجتي دون عناء البحث عنهما خارج الفندق، وقد اكتشفت لاحقا أن مكاتب الصرافة تكاد تتوازع فنادق العاصمة والمدن الأخرى.

بي شوق لاستطلاع مكان إقامتي ولأنحاء المدينة التي تطأ قدماي أرضها للمرة الأولى. مشاهد المدينة التي رأيتها من زجاج السيارة التي أوصلتني من المطار مطمئنة ليس فيها ما يسترعي الانتباه، لكن لا شيء يبعث على القلق..

خطواتي تأخذني إلى حديقة تيمور، وتمثاله الذي يتوسط الحديقة وهو يمتطي صهوة جواده التي قضى فوقها معظم سني حياته.. عشرات السياح يتحلقون حول التمثال، ويعتلون درجاته، ويلتقطون الصور بأوضاع مختلفة. وأعداد أخرى من السياح اتخذت أماكنها على كراسي الحديقة المبثوثة في كافة أنحائها..

وأنا أنظر إلى التمثال تتداعى صور صاحبه وهو يجاهد من أجل استعادة مجد دولة أسلافه (جنكيز خان) و(هولاكو) حتى أعادها مثلما كانت، بل حاول التوسع أكثر حين بلغ به طموحه غزو الصين ولم يقف في طريق جبروته سوى الموت.. أستمع إلى المرشد السياحي وهو يتلو على الفوج السياحي بطولاته وجهاده وإيمانه ونصرته للإسلام، وأستعيد ما درسناه في التاريخ عن جبروته وطغيانه ودمويته. أستمع إلى المواطنين وهم يقدسونه ويفاخرون به، وأستعيد ما تحمله ذاكرتي عنه وهو يبني أهرامات من جثث القتلى في كل بلد مرَّتْ به جيوشه، حتى فاق ما صنع أسلافه من أهوال..

أرى وأستمع وأعجب من مقدرة الطغاة على تبرير تصرفاتهم. أرى وأسمع وأحاذر أن أتحدث عن رمزهم بما يعيبه؛ لا سيما الوصف الذي رسخ في ذاكرتنا، حتى أصبح جزءا من اسمه، وأصبحنا لا ننطقه إلا ملازما له (تيمور لنك) ونسينا أن (لنك) مسبة له، فهي تعني الأعرج بلغة الفرس الذين لقبوه به بعد أن أصيب في إحدى المعارك بجرح عميق في قدمه.

اكتشفت بعد أن أوغلت في السير في أقصى الحديقة أنها ليست كبيرة، فأنا أوشك أن أصل لبوابتها الأخرى المقابلة لبوابة دخولي. كانت الشمس تجنح نحو الغروب وبدأت المصابيح الكهربائية تضيء واحدا تلو آخر، وكأنها كانت تنتظر غياب الشمس لتحل محلها.. وبدا لي خارج الحديقة شارع طويل تمتد فيه عقود الزينة بكل ألون الطيف وكأنما تشكل سقفا لهذا الشارع.. عبرت نفق المشاة إلى الشارع المثير للدهشة، واستوقفني قبل خروجي من النفق عازفو القيثار كما هو مألوف في المدن العالمية.. خرجت من النفق وإذ بالشارع الذي أقصده شارع مخصص للمشاة، مرصوف بعناية ومعتنى بنظافته، وقد اصطفت على جانبيه معارض الملبوسات والعطورات، وفي عرض الطريق عدد من الباعة الجائلين ومقدمي مسابقات التسلية والعروض التمثيلية المباشرة.

وقبل أن أمضي كثيرا في الشارع لاحظت ممرا جانبيا اصطفت على جانبيه مطاعم ومقاه تفضح أسماؤها هويتها، وما تقدمه من وجبات.. كان الجو لطيفا، ولذا صَفَّتْ معظم هذه المحلات مقاعدها على الأرصفة العالية مقابلها.. صعدت الدرج المؤدي لأحدها واتخذت مقعدي وإذ بي أكتشف من خلال قائمة الطعام (المنيو) ومفارش الطاولات أنني في مطعم (برودوي) Broadway وحين فتحت هاتفي المحمول أستكشف المنطقة التي أنا فيها إذا بالمطعم يحمل اسم المنطقة كلها.. إذن فأنا في منطقة تسمى البرودوي تيمنا بالشارع المعروف في مدينة نيويورك! أظنها بداية التغريب والتخلي عن سيطرة الاتحاد السوفييتي..

كنت أبحث في قائمة الطعام عن طبق خفيف الهضم، لأني أعرف أن الأوزبك مشهورون بطبق (البيلاف) pilaf وهو أشبه ما يكون بالكبسة السعودية بلحم الضأن أو الخيل، ومعروفون بتناولهم الشحم الخالص. اكتفيت من القائمة بصفحة المقبلات وطلبت طبقين من (السمسا) Samsa و(المانتي) Manti. الأولى هي ما تعرف لدينا بـ (السمبوسة)، والثانية

هي (المانتو) والأخيرة من الوجبات الأوزبكية الأصيلة التي وفدت علينا مع الحجاج التركستانيين..

طريق عودتي للفندق كان هو الطريق نفسه الذي سلكته لكن الطريق بدا مختلفا.. الحديقة أضيئت بمصابيح خافتة، ومن على بعد كانت واجهة فندق أوزبكستان مضاءة من أعلاها إلى أدناها بمزيج من الألوان المتماوجة، وبدا تمثال أمير تيمور - الذي سلطت عليه إضاءة خاصة - كأنه بوابة الفندق!.

جولات في العاصمة الأوزبكية

في هذا الصباح كان أمامي مهمة لا بد من إنجازها، وهي حجز وشراء تذاكر التنقل داخل البلاد بالقطار. ولا أدري ما الذي منعني من حجزها وشرائها عن طريق الموقع الإلكتروني للسكك الحديدية. توجهت إلى مقر محطة القطار الرئيسة عبر شبكة مترو طشقند من باب التجربة، وشجعني على ذلك أن محطة المترو أمام فندقي تماما، وإلا فسيارات الأجرة منظمة وأستطيع طلبها بواسطة الهاتف، وبثمن بخس..

سلكت طريقي واشتريت تذكرة المترو من شباك التذاكر. كانت التذكرة بألف (سوم) som وهي تعادل نصف ريال أو ثُمن دولار، لأن الدولار يعادل وقت رحلتي ثمانية آلاف سوم! وحسنا فعلت، فمحطات المترو في طشقند معالم سياحية جميلة تستحق الزيارة؛ جدرانها مزينة بالنقوش والزخرفة، وأرضها مكسوة بالرخام والسيراميك، وسقفها محلى بالنقوش الجبسية، وتتدلى منه ثريات جميلة تضيف للمكان بهاء ورونقا.

ابتدأ العمل في إنشاء المترو منذ نصف قرن، أي في عام 1968 لكن المحطة مرتبة واللوحات الإرشادية باللغتين الروسية والإنجليزية واضحة، والمرشدون والمرشدات يتحدثون اللغة الإنجليزية، ولا وجود للزحام الذي يشكل العائق الأول من استخدام المترو في كثير من بلدان العالم.

وصلت محطة القطار، وسألت مكتب الاستقبال إلى أين أتجه، فدلتني موظفة على الشباك الوحيد الذي أجد فيه من يتحدث الإنجليزية. اتجهت حيث أُرشدت إلى المكتب المختص.. كان أمامي صف غير طويل من الأجانب. انتظرت قليلا حتى وصلني الدور. خشيت أن تكون عربات القطار قديمة مثل عربات المترو، فطلبت من البائعة أفضل ما لديهم من الدرجات على جميع رحلاتي من طشقند إلى سمرقند، ثم إلى بخارى، فالعودة من بخارى إلى طشقند. قالت لي الموظفة وهي تناولني التذاكر إنها اجتهدت في حجز أفضل المتوفر من الدرجات!

خرجت من محطة القطار إلى محطة المترو وركبت إلى محطة (كورسو) Chorsu نزلت منها وأردت أن أتجه إلى بازار (كورسو) Bazar Chorsu لكني شاهدت على مقربة من السوق معلما مهما كنت وضعته في خارطة زياراتي؛ هو مدرسة (كوكالدوش) Ko'kaldosh Madrasasi التي بنيت عام 1570 على يد القائد كوكالداش Gulbaba Kokeldas وبجانبها جامع Dzhuma Mosque مما يدل على أن بناء المدارس والمساجد والاعتناء بها ظل صامدا في وجه الزمان، رغم محاولات الاتحاد السوفييتي طمس معالمه، وانتزاع الدين من صدور المسلمين.

واتجهت بعد ذلك إلى أشهر الأسواق في طشقند؛ بازار كورسو Bazaar Chorsu وهو سوق قديم تزينه القباب العالية التي تقي الباعة والمشترين حرارة الشمس. سوق يجد فيه كل من المواطن والسائح ما يطلبه من ملابس وأجهزة، ومن خبز وفاكهة طازجة ومجففة.

نهاية السوق تقود إلى حديقة جميلة هي حديقة (عبدالله قادري) Abdulla Kadiri Recreation Park فيها مساحات خضراء شاسعة، وألعاب ترفيهية وتعليمية للأطفال. أخذت قسطا من الراحة في أفيائها، وعدت بعدها إلى الفندق للراحة ثم لاستئناف جولة مسائية..

ولأن اليوم السبت فقد كانت الحركة دائبة في حديقة أمير تيمور المواجهة لفندق أوزبكستان، ووجدتني فجأة داخل الحديقة. كان المتنزهون من أهل المدينة يوازون السياح وينافسونهم على الالتفاف حول تمثال تيمور. لم ألتفت إلى التمثال وواصلت المسير إلى منطقة البرودوي التي كنت فيها ليلة البارحة لأراها نهارا وفي يوم عطلة. كان الملفت هو تحول أحد ممرات المنطقة الفرعية إلى معرض فني، فيه علقت مئات اللوحات الفنية في الهواء الطلق، ومعرض للمصنوعات القديمة فيه يعرض بائعو الأدوات القديمة بضاعتهم التي لم تعد صالحة للاستعمال مثل الأواني المنزلية وأجهزة التسجيل والطابعات، وأظنهم مولعون - مثلنا - باقتناء هذه الأدوات التي أصبحت مع مرور الزمن تحفا..

معالم أخرى من طشقند

في يومي الثالث من أيام طشقند استكملت زيارة أجزاء لم أرها من قبل. اتجهت صباحا إلى الحديقة المائية Water Park. الحديقة فقيرة في وسائل الترفيه التي تجذب الأهالي وأطفالهم، فعلى الرغم من أننا في يوم الأحد فقد كان عدد الزوار قليلا جدا، وعلى الرغم من أنها حديقة مائية؛ فلم يكن بها ألعاب مائية، ومع وقوعها بين النهر والبحيرة؛ فلم يكن هناك رحلات نهرية. خارج مدينة الملاهي كان برج طشقند العملاق؛ برج التلفزيون.

في طريق عودتي توقفت في (سوق ألاي) Alay Bazaar وهو أحد أقدم الأسواق في طشقند. يعود تاريخه إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر حين كان نقطة مهمة على الطريق التجارية المتجهة من تركستان الشرقية في وادي فرغانة. كان سوقا لتجارة الماشية، واليوم يحتوي على أصناف عديدة من المنتجات، كالحلويات الشرقية والفواكه والمكسرات والأطعمة الأخرى، وفيه قسم للسلع الرخيصة والمستعملة المتنوعة، كما يحتل مجمع حديث للمجوهرات مكون من طابقين حيزا من السوق.

في الفترة المسائية كانت الوجهة إلى أكثر مجمعات الآثار الإسلامية في أوزبكستان شهرة، ألا وهو (مجمع حضرت إمام) Hazrat Imam Complex طالعتني مآذنه الشامخة منذ أن سلكت الشارع المؤدي إليه. بدأت الزيارة من المسجد الجامع والإدارة الدينية التي تشرف على الآثار الإسلامية في أنحاء البلاد وهي إدارة شبه مستقلة عن الحكومة. ثم انتقلت إلى مدرسة (بركة خان) Barakhan Madrasa ثم مسجد Tilly Sheikh Mosque.

أمام هذه المواقع التي امتزجت فيها فنون العمارة التقليدية والحديثة مساحات شاسعة للتنزه، وممرات فسيحة أدت بي إلى معهد الإمام البخاري Imam Albukhari Insitute وعلى بعد خطوات منه يقبع ضريح الإمام أبي بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال الشاشي Kaffal Shashi Mausoleum الذي بني في عام 1542 تعلوه قبة زرقاء كبيرة، وملحق به غرف كانت مخصصة للمسافرين، وهو نموذج لمئات الأضرحة التي تمتلئ بها مدن أوزبكستان.

إلى سمرقند على سرير

في الصباح الباكر توجهت إلى محطة القطار في طريقي إلى سمرقند. التذكرة مكتوبة باللغة الروسية فتقدمت بها للمرشد ليدلني على مكاني، وكانت المفاجأة أن أخذني إلى غرفة من سريرين!. كان على السرير الآخر رجل مستغرق في النوم، يبدو أنه قادم من مكان بعيد، ومتجه إلى مكان أبعد. كان الرجل قد خلع ملابسه الرسمية، وعلقها على مشاجب مخصصة لذلك، واكتفى ببنطال قصير (شورت) وقميص، وقد وضع حاجياته بجانبه؛ هاتفه وساعة يده ومحفظته مما أكد لي توافر الأمان في هذه البلاد، فوسائل المواصلات - وبخاصة القطارات - هي بؤر اللصوص في كل مكان!

تذكرت أنني طلبت من الموظفة التي قطعت لي التذاكر أفضل ما لديهم من درجات لكن لم أطمع في مثل هذه الرفاهية، إضافة إلى أنني لا أحتاجها

فأنا لم أعتد النوم نهارا؛ ولا سيما في وسائل المواصلات بما في ذلك الطائرات بعيدة المدى، فضلا عن أن الرحلة لا تزيد عن ثلاث ساعات ونصف.

الجلوس على السرير لساعات أمر غير مريح. يذكرني بالمريض الذي يجلس على سريره مجاملة لمن يعوده من أقاربه وأصدقائه، ويستعجل مغادرتهم حتى يعود لوضع الاستلقاء! ما جعل الوقت يمضي سريعا هي المروج الخضراء التي استمتعت بتأملها، وبما يتخللها من أنهار ووديان، وأحاديث متقطعة مع شريكي في الغرفة كلما أفاق من غفوته!

تعلمت من حديثي مع جاري الأوزبكي أننا في قطار الشرق Sharq Train وأنه بطيئ مقارنة بالآخر المسمى (أفروسيوب) Afrosiyob Train الإسباني الصنع، فقطارنا سرعته مائة وأربعون كيلا في الساعة فقط، في حين أن الآخر تصل سرعته إلى مائتين وعشرة أكيال، لكن ما يميز قطارنا هو درجة الـ SV وتعني عربة النوم Sleeping Vagon

دفعني الفضول بعد هذه المعلومات عن قطارات أوزبكستان إلى مراجعة تذاكري لرحلتيّ القادمتين مستعينا بجاري، فوجدت أن رحلتي من سمرقند إلى بخارى - وهي الأقصر مسافة - (260 كم) على القطار السريع وبدرجة الـ VIP أما رحلة بخارى طشقند التي تبلغ (610كم) فعلى قطارنا الذي يقلنا حاليا - قطار الشرق - وبالدرجة الأولى!

وصلت إلى محطة القطار في سمرقند وخارج المحطة كان سائق فندق راجستان Hotel Registan في انتظاري. بعد دقائق كنت في الفندق ولم تبلغ الواحدة ظهرا.

عاصمة عبر التاريخ

تعد سمرقند واحدة من أقدم مدن العالم، إذ يقدر عمرها بألفين وخمسمائة عام. تقع وسط الأراضي الخصبة لنهر (زرفشان) Zarafshan الذي يمر جنوبي طشقند. خضعت المدينة للحكم الإسلامي في منتصف القرن الأول الهجري على يدي الفاتح العربي المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي، وأخذت تزدهر بسرعة كبيرة؛ خاصة بعد أن اتخذها السامانيون عاصمة لدولتهم لفترة من الزمن، وكان من حسن حظها أن اختارها تيمورلنك لتكون حاضرة دولته، فكرَّس جهده لتجميل المدينة بالمنشآت الرائعة.

تتميز المدينة بمناخها الثقافي الذي يعدّ مزيجا من عدة حضارات كالفارسية والهندية والعربية والأوربية. وظلت عاصمة مهيبة طوال العقود المتتالية، حتى حكم الروس آسيا الوسطى، ونقلوا عاصمة أوزبكستان منها إلى طشقند، لأن المظهر الإسلامي فيها أقل وضوحا منه في سمرقند، ولوجود نصف مليون روسي في طشقند آنذاك.

ونظرا لأهمية المدينة تاريخيا، ومقتنياتها الأثرية الفريدة اختارتها منظمة اليونيسكو العالمية لتكون على قوائمها للتراث الإنساني عام 2001.

ضريح أمير تيمور

سبتمبر ومارس أكثر الشهور مناسبة للسياحة في أوزبكستان، فالحرارة معتدلة نهارا وليلا. لا حاجة للتكييف ولا للملابس الثقيلة، ولا داعي للانتظار حتى تغيب الشمس لبداية الجولة، إذ يمكن التجول في أي وقت من النهار. ولذا خرجت من الفندق بعد استراحة قصيرة على قدمي أرسم طريقي على خارطة (جوجل) لأصل أولا إلى ضريح أمير تيمور Gur-Emir Mausoleum مع ما في نفسي عليه.

بنَى هذا المجمع في بداية القرن الخامس عشر محمد - حفيد تيمور - وكان يتألف من مدرسة لتعليم أطفال نبلاء سمرقند، ومكان للخلوة التعبدية المعروفة في اللغة الفارسية بالـ (خانقاه)، لكن موت محمد المفاجئ في عام 1403م أدى إلى تغيير في الاستخدام المقصود للمجمع، إذ دفن فيه محمد هذا، ثم أمر تيمور ببناء الضريح ليكون أول من دفن فيه بعد سنتين فقط - أي في سنة 1405م - ثم أنشئت مدافن لنسله من بعده..

لم يختلف الوضع عما شاهدتُه عند تمثاله في طشقند.. المرشدون يقودون السياح، ويتلون عليهم أمجاد قائدهم الفاتح المسلم؛ مؤسس الإمبراطورية العظمى! وتمنيت لو كان معي كتاب منصور عبدالحكيم (تيمور لنك إمبراطور على صهوة جواد: سفاك الدماء وهادم الحضارات) فأقرأ منه بعض صفحاته على مسامع السائحين!.. عجبت لسمرقند كيف يتسع صدرها لتيمور في الوقت الذي تستضيف فيه - على بعد عشرين كيلا - ضريح الإمام البخاري!

ميدان راجستان

وانتقلت من مجمع ضريح تيمور إلى ميدان راجستان Registan Square الذي يعد من أجمل ما تركته الدولة التيمورية وحكامها. كان مجرد ساحة واسعة يتجمع فيها الناس لسماع البيانات الحكومية، ومشاهدة تنفيذ الأحكام العلنية، إلى أن أنشأ فيها الملك العالم (ألوغ بيك) Ulug bek حفيد تيمور عام 823 هـ (1420م) مدرسة عرفت باسمه، تضم خمسين غرفة للدراسة والمعيشة، وتتكون من طابقين؛ يعلوهما أربع قباب، ويزين جانبي المدرسة منارتان؛ يبلغ ارتفاع كل منهما أربعة وثلاثون مترا.

ونظرا لأن مؤسسها كان عالما فلكيا فقد قرر تدريس علوم الفلك والرياضيات إلى جانب العلوم الدينية، واخترع بعض الآلات الحسابية الخاصة بعلوم الفلك، وشيد مرصده الفلكي على أحد تلال المدينة قبل أن

يثور عليه الفقهاء، ويجبروه على التنازل عن العرش لابنه عبداللطيف عقابا له لاشتغاله بعلم الفلك!.

وفي عام 1619 أسس القائد العسكري (يالا بجتوش بهادر) مدرسة (شير دار) Madrassah Sherdar في الساحة نفسها مواجهة لمدرسة أولوغ بيك، وأنفق عليها من ماله الخاص. وقد صممت بشكل يتناسب وتصميم مدرسة ألوغ بيك، وزينت كما تلك بالفسيفاء، وامتلأت أعمدتها وقبابها بالآيات القرآنية والحِكم بالخط العربي الكوفي الجميل.

كما أسس القائد العسكري بهادر في عام 1646م مدرسة (تيلا كاري) Madrassah Tillakari وقد روعي في تصميمها أن تستخدم إيواناتها لإقامة الصلوات فيها بعد أن تهدمت جدران مسجد (بيبي خانوم) Bibi Khanum Mosque رابع أضلاع الساحة ولم تعد الصلاة آمنة فيه.

وقد ظلت هذه المدارس منارات للعلم ومنهلا للطلاب من كل الأنحاء حتى الاجتياح الروسي الذي أوقف التعليم فيها وحولها إلى مزارات سياحية.

وعلى بعد دقائق من ساحة راجستان إلى جهة الشرق يرتفع تمثال الرئيس السابق للبلاد (إسلام كريموف) islam karimov الذي حكم البلاد من العام 1991 إلى حين وفاته في سبتمبر 2016..

في حضرة الإمام البخاري

في صباح اليوم كان مستهل البرنامج زيارة مجمع الإمام المعروف أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح الذي ولد في (بخارى) وقضى معظم عمره متنقلا في الأمصار الإسلامية عالما متعلما، إلى أن عاد ليستقر فيها. لكن حاكمها خالد بن أحمد الذهلي أخرجه منها لخلاف بينهما، فاتجه إلى أقارب له في قرية (خرتنك) بالقرب من سمرقند،

ومكث فيها أواخر حياته حتى مرض وتوفي بها يوم عيد الفطر سنة 256هـ الموافق سنة 870م.

دفن في هذه القرية التي لم يكن لها شهرة قبل وصوله إليها، وقد غدت اليوم محجا للزوار على مدار العام من سكان سمرقند والسياح المحليين والاجانب، إذ تحول القبر إلى مجمع يضم ضريحا للإمام مزينا بقبة خضراء محززة. وإلى جوار الضريح أقيم مسجد كبير يمثل العمارة الأوزبكية، مزين بثريا نحاسية ضخمة، وقد فرشت أرضه بزرابي مغربية فاخرة وكلها - الزرابي والثريا - من هدايا الملك الحسن الثاني؛ رحمه الله. وفي داخل المجمع مدرسة للحديث الشريف بها فصول متعددة وغرف تتخذ سكنا للطلاب.

كما يضم المجمع متحفا إسلاميا يحوي نسخا مخطوطة متعددة من القرآن الكريم، وقطعة من كسوة الكعبة الشريفة، وتحفا متنوعة قدمت هدايا من زعماء دول إسلامية لهذا المتحف.

ومع أن المجمع يتقاضى رسوما رمزية للدخول من مواطني أوزبكستان، ومواطني الدول المجاورة، ورسوما غير رمزية من غيرهم من السائحين؛ إلا أن هذه الأموال لم يظهر أثرها في تحسين الطريق المؤدي إلى المجمع بعد الخروج من الطريق العام، ولا في إيجاد مواقف سيارات منظمة.

سوق تاريخي

هنا في سمرقند لا تبحث عن الوجه الحضاري للمدينة الذي اعتدت أن تراه في المدن العالمية كالمجمعات التجارية أو المباني الحديثة، لأنك تعيش في الماضي بكل صوره التي تختزنها الذاكرة.

قضيت شطرا من يومي الثالث في هذه المدينة الساحرة في سوق (شياب) Siab Bazaar الذي يذكر بطريق الحرير. أنظر إلى الناس من حولي

وأراهم أولئك الذين كانوا قبل قرون يتجمعون ليتبادلوا حكايات الفاتحين، ويتسقطوا أخبار الغزاة، ويناقشوا معا القرارات التي سيتخذونها..

يأخذني المدخل الرئيس للسوق ذو العقد المغطى بالفسيفاء الزرقاء إلى خمسة صفوف طولية من المظلات التي تقي البائعين حرارة الشمس صيفا، كما تقيهم برودة الطقس ورذاذ المطر شتاء.

هذا السوق هو سوق المزارعين فلا عجب إن دبت الحركة فيه منذ الصباح الباكر، وخفَّت منه مع هبوط المساء. ولا عجب إن علت أصوات البائعين ينادون على بضائعهم التي لا يقطعها إلا مساومات الزبائن، لأن الضجيج هنا نوع من التعبير عن الحياة أكثر منه رغبة في تصريف البضاعة. إنه فعل شبيه بإصرارهم على أن يَطعمَ المارة مما لديهم من منتوجات طازجة حتى إن لم يشتروا، ومثله تماما هذه المساومات والمفاوضات على دراهم معدودة. إنها عادة اكتسبها كل من البائع والمشتري على مر التاريخ ولا علاقة لها برفع سعر المنتج من قبل البائع، ومحاولة خفضه من قبل المشتري. هنا تستمتع الحواس الخمس بما ترى وتسمع وتشم وتلمس وتتذوق!

كل ما تنتجه الأرض الأوزبكية من ثمرات الأرض تجده هنا؛ الخضروات والفواكه الطازجة والمكسرات والبهارات، ولا تنس الخبز السمرقندي فله هنا شهرة خاصة. لقد لمست حفاوة الأوزبكيين بالخبز المحلي ذي الشكل الدائري في أثناء وجودي في طشقند، لكني وجدتهم هنا يفخرون بخبزهم السمرقندي، ويعزون جودته إلى نوع القمح الذي تنتجه أرضهم ويصنع منه..

ولأننا في سوق المزارعين فسنجد أصنافا مما أنتجته أيديهم الماهرة من الأدوات التقليدية التي صنعوها من البيئة المحلية، جنبا إلى جنب مع ما صنعوه من حلويات، وما جففوه من فواكه، وما سحقوه من أعشاب، وما أعدوه من أدوات لزينة النساء..

ما تبقى من النهار قضيته مستمتعا بالتنزه في حدائق سمرقند الغناء التي تمثل المساحة الكبرى من المدينة.. تذكرت بيتين لابن الفتح البُسْتي وهو ينتصر لسمرقند حين سمع من يساويها بمدينة (بلخ):

لِلنَّــاسِ فِــي أُخرَاهُــمُ جَنَّــةٌ وَجَنَّــة الدُّنيَــا سَــمرقَندُ

يَا مَن يُسَوِّي أَرضَ بَلخٍ بِهَا هَل يَستَوِي الْحَنظَلُ وَالقَندُ

المدينة المتحف

وجهتي اليوم إلى بخارى. توجهت في التاسعة صباحا بسيارة الفندق إلى محطة القطار، واستعنت بأحد مرشدي القطار ليوصلني إلى مقعدي. القطار من النوع الإسباني السريع Afrosiyob Train يقطع المسافة إلى بخارى في ساعة ونصف. المقعد وثير، لكن لم يسترعِ انتباهي من الخدمات ما تستحق فيه هذه المقصورة لقب الـ VIP

انطلقنا في العاشرة صباحا وبعد ساعة ونصف كان سائق فندق (مليكة بخارى) Malika Bukhara Hotel في استقبالي. اصطحبني بسيارته، وبعد مضي ربع ساعة دخلنا منطقة مغلقة لا يسمح للسيارات بدخولها إلا المرخص لها؛ فضلا عن الحافلات السياحية التي اكتظت بها الساحة. أشار لي بالنزول وحمل حقيبتي وطلب مني اللحاق به، ومضيت خلفه مسافة قصيرة حتى دخلنا شارعا جانبيا وإذ بباب الفندق.. ومع أن النهار لم ينتصف بعد إلا أن غرفتي كانت جاهزة.

مبنى الفندق على الطراز القديم كالمنطقة التي يتوسطها. يتكون الفندق من طابقين؛ في كل طابق صف من الغرف انتظمت على شكل مستطيل حذف منه أحد ضلعيه القصيرين، أو باختصار على شكل U والفراغ عبارة عن حديقة فيها أنواع لا تحصى من أشجار الفاكهة المثمرة، والأشجار العطرية التي تملأ المكان بهجة وأنسا، وقد بثت في جوانبها الأرائك العالية،

والكراسي المنخفضة ليختار النزلاء ما يحلو لهم وما يريحهم. كانت غرفتي في الطابق الأرضي ولذلك كان هذا هو المكان الذي قضيت فيه معظم الوقت الذي أمضيته في الفندق، وما أقله!..

الفندق في وسط المنطقة السياحية ولذلك فكل المعالم في متناول القدم. لقد زرت مدنا عتيقة كثيرة في العالم الشرقي والغربي كانت المناطق التراثية فيها تحتل جزءا من المدينة لا يتجول فيه إلا السائحون ومن يقوم بخدمتهم، ولكن بخارى كلها منطقة أثرية قديمة يختلط سكانها بسياحها، ومعالمها الأثرية ببيوت أهلها. هنا تشعر أنك تنتمي لقرون خلت وأنك لا تعيش في العصر الحاضر ولا أهله، ولا يعيدك لواقعك إلا نشرة إخبارية تشاهدها في تلفاز غرفتك!

بخارى من أقدم مدن العالم. وهي عاصمة ولاية بخارى وخامس مدن أوزبكستان سكانا.

اهتم الأوزبك منذ أن اعتنقوا الإسلام بتشييد المدارس و المساجد في كل من سمرقند وبخارى إلى أن باتت الأخيرة محجا لملايين الزوار من بلاد الشام وفارس واليمن وتركستان و الهند وكشمير والأندلس، وأضحت لمدارسها العلمية شهرة خاصة حتى نهاية القرن الثامن عشر، حين بدأت روسيا القيصرية زحفها نحو آسيا الوسطى، وضمتها إلى إمبراطوريتها، وعزلتها عن العالم الإسلامي، وأغلقت مدارسها، ومنعت الصلاة في مساجدها..

لبخارى أهمية خاصة لدى أهلها، فهي بالنسبة لهم مسقط رأس الشيخ (بهاء الدين نقشبندي) الرمز الصوفي المعروف ومؤسس الطريقة النقشبندية، وخارج بخارى على بعد اثني عشر كيلا يقع ضريحه وأضرحة شيوخ الطريقة النقشبندية التي يفد إليها الملايين سنويا.

تضم بخارى أكثر من مائة وأربعين معلما، ولذا لا غرو إن لقبت بـ (المدينة المتحف) the real city-museum وأدرجت مدينتها القديمة ضمن لائحة اليونسكو للمواقع الأثرية العالمية. فمن أين أبدأ جولتي؟

كاليان

خرجت من فندقي إلى جهة الشمال. كان مواجها لي تماما على الشارع الرئيس مبنى فخم تحيطه هالة من البهاء، وعلى أبوابه حرس بزي خاص. ظننته مقرا حكوميا مهما وحين اقتربت منه إذ به فندق آسيا Hotel Asia اتجهت إلى اليسار إلى جهة الغرب وإذ بـ (مئذنة كاليان) The Kalyan Minaret

تعد هذه المئذنة من أهم رموز المدينة الباقية يعود بناؤها إلى عام 1127م، ويبلغ ارتفاعها ثمانية وأربعين مترا، وهي دليل على الهندسة المدنية، والإبداع المعماري المتفوق، فقد بنيت من الآجر المشوي لتشكل برجا دائريا متجانسا، يضيق كلما ابتعدنا عن قاعدته السميكة إلى قمته. وفي القمة الدائرية اثنتا عشرة فتحة ينساب منها صوت المؤذن عند النداء للصلاة. وفي وقت الحروب والنكبات تستخدم المنارة برج مراقبة، كما يصدر منها النداءات التحذيرية والإعلانات والاستغاثات.

وبالقرب من المئذنة أقيم مسجد كاليان The Kalyan Mosque الذي يعود إلى القرن الخامس عشر. ويتميز هذ الجامع بأعمدته وقبابه، إذ تبلغ أعمدته مائتين وثمانية أعمدة، وقبابه مائتين وثمانية وثمانين قبة.

وفي المحيط نفسه تبدو مدرسة (مير عرب) Mir Arab Madrasasi التي بناها في القرن السادس عشر القائد عبدالله اليماني - من العصر الشيباني - المعروف بلقب Mir Arab لتدرَّس فيها العلوم الدينية واللغة العربية.

يميزها تصميمها الإسلامي الجميل المنسجم مع تصميم جامع ومنارة كاليان، ويزيدها أبهة قبتاها الزرقاوان. كما تحتوي على أضرحة معلميها الأوائل، وعلى رأسهم مؤسس المدرسة عبدالله اليماني. كما يستقر في وسطها قبر عبيد الله؛ أمير بخارى (1533-1540).

هذه المدرسة هي المؤسسة التعليمية الوحيدة التي استأنفت عملها بعد الحرب العالمية الثانية في عصر الاتحاد السوفييتي بعد غلق جميع المدارس ومنع الصلاة في كل المساجد. وتعود أهميتها إلى أنها المؤسسة التي تخرَّج منها الأئمة البارزون.

قلعة أرك

بعد هذه السياحة كانت وجهتي قلعة (آرك) Ark Fortress التي تعود إلى القرن الخامس الميلادي، وكانت مقرا لحكام بخارى.. تعرض جزؤها المبني من الخشب لحريق عام 1920 وأعيد بناؤه وفقا لمخططات البناء المحفوظة.

وتمثل القلعة مدينة متكاملة ففيها سكن الأمير وزوجاته وأقاربه، إضافة إلى المحكمة وقسم الشرطة والسجن ومستودع الأسلحة ومخزن المؤن والمساكن الرسمية والإسطبلات.

بعد خروجي من القلعة عبرت الشارع العام، فأصبحت في حديقة Samonids Recreation Park وسرعان ما وجدت مطعما شعبيا تختلط فيه رائحة الخبز الطازج بلحم الخروف المشوي، وقد انتشرت تحت ظلال الأشجار الباسقة المقاعد الضخمة التي تشبه (المراكيز) التي كانت معروفة في مقاهينا القديمة، ولا تزال تشكل جزءا من التراث في جدة القديمة..

تناولت طعام غدائي، وشربت الشاي الأخضر الذي يعد لازمة من لوازم الأكل الأوزبكي.. وعدت إلى مقر سكني لكن من طريق آخر مباشر. كان

الطريق عبر أزقة لم تخل من المواقع الأثرية والمساجد الصغيرة. ذكرتني هذه بالمعابد البوذية التي شاهدتها في (كاتماندو) تملأ شوارع العاصمة الموغلة في القدم.

قلب المدينة

بعد استراحة قصيرة خرجت من الفندق إلى الساحة الرئيسة للمدينة؛ Lyabi-Khauz. هذه الساحة تتوسط ثلاثة مبان رئيسة تشكل قلب المدينة. ففي شمالي الساحة مدرسة (كوكالداش) Kukeldash Madrasah وإلى الشرق مدرسة Nodir Divan-begi والغرب يحتله خانقاه Nodir Divan-begi khanaka وأما الجهة الجنوبية فمغلقة بشارع بهاء الدين نقشبندي، وهو شارع تجاري مخصص للمشاة كما هي المنطقة جميعا.

معظم المباني في بخارى توحي لك بالعظمة التي كانت تعيشها، وتشير إلى عصور الازدهار التي مرت عليها. تجد بوابة ضخمة كبوابات المدارس أو الجوامع التي تشاهدها تنتشر في كل أنحاء المدينة، وتدخل لتفاجأ بأن ما كان مدرسة من قبل قد أصبح سوقا تجاريا، ولم يجر أي تعديل على المباني يتوافق والاستخدام الجديد للمبنى.

هنا في شارع بهاء الدين نقشبندي الذي يحد الساحة من جهة الجنوب تجد مبنى فخما لا يختلف عن مبنى مدرسة كوكالداش المقابلة من الشمال، لكنك ما إن تدلف عبر البوابة الضخمة حتى تفاجئك الحوانيت الصغيرة المنخفضة السقف، فتعرف أنك في داخل سوق kaykon. هذا السوق مختص بالدمى وقد عبر عن هويته بتمثال يقف في مدخله للشخصية التاريخية المعروفة (جحا) الذين يسمونه هنا باسم (خوجه نصر الدين).

والسوق هنا لا يعني محلات تجارية فحسب؛ بل إنك لتجد فيه الورش والمعامل التي يصنع فيها كل شيء، ويعاد تصنيع التالف من الأدوات والأجهزة. فهذا يصنع الدمى، وهذه تنسج الملابس، وهذا يجدد دراجة

هوائية، وهذا يشحذ السكاكين والسواطير، وهذا يصبغ أثاثا خشبيا قديما ليعيد له رونقه..

تذكرت وأنا أطوف بهذا السوق أسواق الطائف القديمة، وكيف كنا نمر بهؤلاء الحرفيين، وجلهم من هذه البلاد.. يسمون أنفسهم بـ (التركستانيين) وهي التسمية التي تشمل جمهوريات آسيا الوسطى التي ضمها الاتحاد السوفييتي منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لكننا نطلق عليهم مسمى (البخارية) ربما لشهرة هذه المدينة، لكن من باب المجاز المرسل، فليس كل التركستانيين بالمملكة من بخارى وحدها..

في الساحة بركة ماء كبيرة كانت جزءا من نظام الري بالمدينة، وأصبحت اليوم قلب المدينة النابض بالحياة. هنا يلتقي السياح من كل الأطياف والأعمار والأجناس بأهل البلد، يتحدثون ويستمتعون بما يقدمه المقهى المطل على الساحة من مشروبات؛ أهمها الشاي الأخضر، وشيء من الوجبات الخفيفة.. الموسيقى لا تتوقف هنا، فإما أن يكون مصدرها آلات التسجيل، وإما أن تكون عزفا مباشرا، وبخاصة في الفترة المسائية.

الملفت في هذه الساحة وجود تماثيل لجِمال توزعت على طول أحد الأضلاع المحيطة بالبركة، وكأنهم يريدون ألا يغيب عن ذاكرتك أنك ما زلت في طريق الحرير!

مدارس أصبحت مزارات

اليوم كان الجمعة. بدأت الجولة صباحا بمدرسة كوكلداش Kukeldash Madrassah التي تعد أكبر مدارس بخارى. تعود إلى القرن السادس عشر حيث كان يحكم بخارى أسرة الشيباني. تتألف من طابقين، بهما مائة وثلاثون حجرة، ما بين فصل دراسي وسكن طلابي، وتتسع لثلاثمائة وعشرين طالبا. تتميز - كما مدارس أوزبكستان - بالبوابة الواسعة الشاهقة الارتفاع.

والملفت للانتباه أن هذا الشموخ في البناء والبوابة يضمحل تماما حين ترى الفصول، فأبواب الفصول قصيرة لدرجة أنه لا يمكن دخول الفصل دون انحناء. وحين تحريت عن هذا الأمر الغريب عرفت أن ذلك من باب احترام العلم لأن الفصل مكان العلم، ومن تقديس العلم ومكانه أن ينحني التلاميذ عند دخولهم الفصول تعبيرا عن هذا الاحترام!

بعد الجولة في هذه المدرسة توجهت إلى معلم آخر، أو إلى مدرسة أخرى هي مدرسة (كور مينور) Chor-Minor Madrasah التي تعني المآذن الأربع. فالمدرسة مع أنها ليست كبيرة الحجم يعلوها أربع مآذن في أركانها الأربعة. كل مئذنة مزينة بالنقوش وتنتهي بقبة زرقاء. وهي من المدارس التي أصبحت معلما أثريا فحسب.

صلاة الجمعة

اقترب موعد صلاة الجمعة. ومع أني مسافر تسقط عنه صلاة الجمعة؛ لكني أحببت أن أشهد الصلاة كما شهدتها في جوامع أخرى في عدد من البلدان حول العالم.

يقع الجامع على شارع رئيس يحد المنطقة الأثرية من جهة الشمال، وبقربه موقف للسيارات يترك فيه أصحاب السيارات سياراتهم ويترجلون منها إلى حيث شاؤوا، ومن هؤلاء نفر يتجهون إلى المسجد الجامع. سألت أحدهم عن موعد النداء للصلاة فقال لي عند الواحدة ظهرا. ونظرت حولي فإذ بموقف السيارات يتخلله شجرات وارفة الظلال، وتحتها مقاعد خشبية طويلة فاتخذت مكاني على أحدها انتظارا للصلاة، وأخذت أفتش في هاتفي الجوال عن رسائل (واتسبية) ورسائل بريدية إلكترونية، وأتأمل حصيلتي من صور التقطتها في الأيام السالفة. ونظرت إلى هاتفي فإذا الساعة تجاوزت الواحدة ولم أسمع النداء، فأعدت سؤالي على أحد المتجهين للجامع عن موعد النداء فقال لي لقد نودي للصلاة قبل قليل.

استعنت بالله وأغلقت هاتفي وتوجهت للجامع، وحين دخلت وجدت الإمام يخطب، والمصلون كأن على رؤوسهم الطير. أديت تحية المسجد واستمعت لما تبقى من الخطبة، وكان أكثرها باللغة العربية، لكنه يترجم ما قاله باختصار شديد باللغة المحلية بين فترة وأخرى. الخطبة الثانية شملت الدعاء للخلفاء الراشدين جميعا ولعموم الصحابة، ولم يتبع الصلاة دعاء جماعي كما هو عند بعض الطوائف.

المسجد ليس كبيرا لكنه يتسع للمصلين جميعا داخله، فلم يضطر الذين حضروا متأخرين للصلاة على البسط التي مدت في ساحة المسجد الخارجية.

فكرت في عدم الاستعانة بمكبر الصوت لرفع الأذان، وإلقاء الخطبة، فخمنت - غير متيقن - أنها من اشتراطات الدولة العلمانية على المسلمين لأداء شعائر عبادتهم..

مطعم في قصر

قُضيت الصلاة وانتشر الناس، وكل اتجه إلى مراده. وأخذتُ طريقي إلى المدينة العتيقة عبر أزقة لم أسلكها من قبل، أتوقف هنا وهناك متأملا الطراز القديم للمباني الذي يصرون على المحافظة عليه حتى عند ترميمهم لبيوتهم وحوانيتهم. امتدت جولتي هذه بعض الوقت قبل أن أجد نفسي في شارع النقشبندي؛ شارع المشاة الرئيس المؤدي إلى ساحة وسط المدينة. كانت الساعة تتجاوز الثانية والنصف حين توقفت أمام مبنى ملفت للنظر ببوابته الشامخة، وقبل أن أقرأ لوحة كبيرة معلقة إلى جوار بوابته تقدمتْ إليَّ فتاة بالزي التقليدي تدعوني إلى الدخول!

لم يكن هذا المبنى المهاب سوى مطعم راق أخذتني الفتاة إلى داخله، عبر فناء واسع تزينه أشجار الفاكهة، وقد وزعت فيه الكراسي الطويلة (المراكيز) وأمامها طاولات الطعام. لكن يبدو أن هذه الساحة أُعدتْ لشرب

الشاي الأخضر بعد الوجبات، أما الوجبات الرئيسة فتقدم في إحدى صالتي المطعم. سلمتني الفتاة إلى زميلتها التي أخذتني إلى إحدى الصالتين المخصصتين للطعام، وسألتني - وهي تسير إلى جواري - من أين أنا؟ وحين أعلمتها، تركت اللغة الإنجليزية المكسرة، وقالت بصوت عربي مبين:

مرحبا.. أهلا وسهلا!

ولم يعد للغة الإنجليزية أي دور بعد ذلك..

سألتها كيف تعلمتِ اللغة العربية، فأخبرتني أنها قضت في (أبو ظبي) فترة طويلة عملت في عدد من مطاعمها..

اختارت لي طاولة مطلة على الفناء في صالة ليس فيها إلا طاولة واحدة مشغولة بأسرة أوروبية.

قلت لها مازحا: يبدو أن طعامكم ليس شهيا، أو أن أسعاركم مرتفعة؟!

فأطلقت ضحكة قبل أن تسألني: كيف حكمت؟

قلت لها لأن المكان - على الرغم من اتساعه وديكوراته - خال من الزبائن.

قالت: أنت قدمت علينا بعد وقت الغداء.. ولو أردت مرة أخرى أن تعود إلينا فعليك أن تحجز مسبقا لأنك قد لا تجد طاولة شاغرة.

ابتدأت غدائي بـ (الشوربة) التي تسمى هنا Shorva ووجدت (البيلاف) Pilaf على رأس القائمة، فطلبت طبقا منه بلحم الضأن - لا الخيل - وهو أشبه ما يكون بالكبسة الخليجية؛ غير أن الأرز يضاف إليه كثير من الجزر

المبشور، وتطيب نكهته بأصناف شتى من البهارات ذات الرائحة الزكية غير الحارقة.

انصرفت العائلة الأوروبية، فاتجهت مضيفتي إلى جهاز التسجيل، وعبثت به قليلا، وإذ بمنوعات غنائية عربية من مختلف الأقطار العربية.

قالت لي قبل أن أسألها: هذه مما انتقيته حين كنت في أبو ظبي.

شكرتها على حسن اختيارها، وتذكرت على الفور الشاعر الأيوبي ابن عُنين (ت 630هـ) وهو يذم بخارى، لأنه لم يجد من يطعمه، فقال:

أتقرَّى التجارَ في سائرِ الخا ناتِ ظهرًا عندَ استواءِ القدورِ

فإذا فاتني كريمٌ يغذّيني تعشيتُ قُرصةً مِنْ شَعير

أمَا لو أنك يا ابن عنين عرفت هذا المطعم لما احتجت إلى التجار البخلاء.. لكني لا أستبعد أن تكون رأيت هؤلاء (البخاريات) وخشيتَ على نفسك الفتنة، فقلت:

آليتُ لا آتي بخارى بعدها ولو أنها في الأرض دارُ خلود

فلقد حللت بها حنيفا مسلما ورحلت عنها باعتقاد يهودي

خرجت من مضيفتي شاكرا طيب طعامها، وحسن ضيافتها، ودعتني لتناول الشاي الأخضر في حديقة المطعم، وسلمتني لزميلة لها أخرى!

قبل وداع بخارى

ليلتي الأخيرة في بخارى قضيت أولها في محيط البحيرة التي تتوسط مركز المدينة.. كان الحضور فيها أكثر من الليلة السابقة؛ لا سيما من المواطنين الذين انتهزوا فرصة ليلة العطلة الأسبوعية فقدموا بأسرهم

ليملؤوا الساحة ومقاعد المقهى الوحيد. واجتهد المضيفون - احتفاء بهم - في ألا تتوقف أنغام الموسيقى الأوزبكية، لتتناغم مع حركة تموج الماء على وجه البحيرة كلما هب النسيم!

أما الجزء الثاني من السهرة فكان في حديقة فندقي، وكان السكان قد اكتمل عقدهم، وتحلقوا حول عازف وعازفة، نُصبتْ لهما منصة صغيرة في زاوية الحديقة، لكن الموسيقى والألحان كانت غربية مسايرة لجمهور الفندق.

حين أطل صباح السبت أعلن عن موعد مغادرتي بخارى إلى طشقند، لكن تبقى لي ساعات قبل الرحيل حرصت على أن أقضيها في أماكن لم أزرها من قبل. اتجهت من فندقي جنوبا وعثرت على مقامات وأضرحة بمساحات صغيرة يبدو أن أصحابها أقل شهرة، وتجاور مساكن لمواطنين، مما عزز اكتشافي أن مدينة بخارى مدينة أثرية لم تنفصل عن ماضيها، وأن سكانها الحاليين قد تعايشوا مع سكانها الراحلين.

عدت إلى الأسواق المجاورة للساحة المركزية.. لم ألحظ إلا امتلاء الساحة بالمواطنين وقد اصطحبوا أطفالهم. وجدتهم يتجمعون حول مكان في الحديقة المحيطة بالبركة، ويلتقطون الصور بآلات التصوير والهواتف المحمولة، وحين اقتربت من المكان وجدت تمثالا لـ (جحا) وحماره، الذي يسمونه (خوجة نصر الدين).

انتصف النهار فعدت إلى فندقي، وأنهيت إجراءات المغادرة، وسلمت غرفتي ومفتاحها لموظف الاستقبال، وأودعت حقيبتي الفندق ريثما أعود إليها بعد ساعتين، وسألت موظف الاستقبال أين أجد مطعما سياحيا أتناول فيه طعام الغداء؟ فدلني على مطعم خلف الفندق مباشرة لم أره من قبل، لأن كل تحركاتي من قبل كانت في اتجاه الساحة المركزية وسط المدينة.

كان مطعما شعبيا سياحيا كبيرا يقع في مبنى أثري لكن معظم الزبائن أفواج سياحية فضلوا الجلوس في الساحة على الغرف الداخلية.

الساحة فناء واسع تظلله أشجار معمرة تكاد تحجب الشمس كليا مع أننا في عز النهار. أما أماكن الجلوس فمصطبات (دكات) مرتفعة عن سطح الأرض قليلا، مفروشة بقطع السجاد المحلي، والوسادات المحشوة لغرض الاتكاء، أو إسناد الظهر عليها. وفي وسط كل دكة وُضعتْ مائدة يتناسب ارتفاعها مع مستوى الجالس؛ تسمى الواحدة منها (داسترخان) يوضع عليها أطباق الطعام.. تناولت تشكيلة من الأطباق الأوزبكية الشهية، ولم أنس نصيبي من الخبز الأوزبكي الشهير.

العودة إلى طشقند

عدت إلى الفندق وإذ بالسائق ينتظرني لإيصالي وأمتعتي إلى محطة القطار. أوصلني، وودعته مواصلا طريقي إلى المحطة، واتجهت إلى الرصيف مباشرة لأن السائق كان قد أخبرني برقمه. رحلتي على قطار (الشرق) Sharq Train البطيء في رحلة هي الأطول. يتحرك القطار من بخارى في الرابعة وعشر دقائق عصرا، ويصل إلى طشقند في العاشرة والدقيقة الثالثة عشرة ليلا. سألت المرشد فأوصلني إلى مقعدي في الدرجة الأولى.

الدرجة الأولى مقسمة إلى كبائن ثنائية ورباعية. كان نصيبي أن كنت في كابينة ثنائية، وكان رفيقي هذه المرة أربعيني من أهل طشقند، لطيف للغاية، لكن مشكلته هي عدم التحدث بالإنجليزية، ولذلك لم يكن لدي ما أقطع به الطريق سوى قراءة أحد الكتب المحفوظة على جهازي؛ وبخاصة بعدما غابت الشمس فأصبح الاستمتاع بما حبا الله البلاد من طبيعة ساحرة مستحيلا..

بعد أن تحرك القطار جاء إليَّ أحد موظفي القطار، وسألني إن كنت أرغب الانتقال إلى مكان أفضل. ولما رآني مترددا طلب مني مصاحبته لرؤية المكان المقترح. لم يكن المكان سوى كابينة SV المخصصة للنوم كالتي قدمت عليها من طشقند إلى سمرقند. شكرت الموظف واعتذرت عن قبول عرضه، فظن أن فارق السعر هو ما يمنعني من القبول، فأخذ ينقص من المبلغ الذي عليّ دفعه إلى خمسة دولارات فقط، ولم يعلم أني اعتذرت منه وأنا أظنه دون مقابل! لم يكن وقت نوم فماذا أفعل بسرير لا أنام عليه؟!

في الطريق توقف القطار قليلا في سمرقند ونزل كثير من الركاب يتبضعون من البائعين الجائلين على الرصيف، ولاحظت أكثرهم عادوا يحملون الخبز السمرقندي ضمن ما اشتروا بمن فيهم جاري. عرض علي مشاركته في تناول شيء من الخبز، فقبلت عرضه وشكرته، وطلبت من مضيف القطار كأسين من الشاي الأخضر. أخذ يتحدث عن الخبز السمرقندي حديثا سمعت مثله حينما كنت في سمرقند، وكان مما قال: إن أثمن ما يُجلب من سمرقند هو الخبز السمرقندي!

وصلنا إلى طشقند في الموعد المحدد بعد العاشرة بعشر دقائق، وحين خرجت من المحطة كان سائق فندق (قصر شودليك) Shodlik Palace Hotel في استقبالي، وهو الفندق الذي حجزت فيه ما تبقى من ليالي رحلتي الأربع. تسلمت غرفتي وخلدت إلى النوم بعد رحلة القطار ذات الساعات الست..

بازار كورسو يوم الأحد

أنهيت إفطاري متأخرا قليلا عما تعودت، فاليوم الأحد ولست في عجلة من أمري، فقد تبقى لي أربعة أيام في هذه البلاد، وقليل من المعالم لم أزرها بعد، ولذا ستكون الأيام التالية أكثر راحة من الأيام التي مضت، وسأحاول الاستمتاع باكتشاف ما تخفيه المدينة من جمال معماري وبيئي.

خرجت من الفندق مستكشفا المنطقة التي تحيط بي وفتحت خارطة جوجل باتجاه محطة المترو التي تبعد عني خمسمائة متر غربي الفندق، ومشيت في ممر مستقيم بين أشجار باسقة على جانبي الممر. طوال الطريق لم تغب عن أذني أصوات أطفال يلعبون وشباب يتقاذفون الكرة، واكتشفت أن المنطقة تعج بملاعب للشباب والأطفال، وأندية ومدارس ومعاهد يبدو أن تلاميذها جاؤوها - اليوم الأحد - للاستمتاع لا للدراسة.

وصلت إلى المحطة ليس لي هدف محدد، فقررت أن أزور سوق كرسو Bazaar Chorsu مرة أخرى. ولأن اليوم الأحد فقد كان السوق مختلفا. لقد امتلأ بالفلاحين والفلاحات الذين جاؤوا بما لديهم من خضروات وفاكهة طازجة ومجففة، وما صنعوه في بيوتهم من مأكولات وحلويات، وما جلبوه من طيور وحيوانات أليفة. وفي ممر آخر باعة جائلون وبائعات يعرضون مستلزمات أكثرها تخص النساء كالملابس والحقائب وأدوات التجميل، ويبدو أنها جلبت من مستودعات أرادت التخلص منها بأي ثمن فأقبل المتسوقون والمتسوقات عليها إقبالا شديدا نجم عنه إغلاق الممر إغلاقا شبه تام.

ميدان الاستقلال

في الجولة المسائية أخذت الطريق المعاكس لرحلتي الصباحية فاتجهت شرقا. سرت في ما يشبه الغابة، وماهي إلا دقائق وإذ بي أرى زرقة المياه. إنها قناة (أنكور) Anchor Channel. على ضفتي هذه القناة المائية يمتد بساط أخضر تظلله أشجار معمرة، وقد امتلأت بالمتنزهين الذين جاؤوا يبحثون عن الهدوء والطبيعة الصامتة.

المنطقة شبه مغلقة، فالأسوار الحديدية تحيطها، لكني وجدت جسرا مقاما على القناة عبرته فإذ بي في ميدان الاستقلال Independence Square الذي يعود إلى الحقبة السوفييتية، وكان يعرف إذ ذاك بميدان (لينين) Lenin Square وكان به تمثال له، حتى حل عام 1992 - بعد الاستقلال

بعام واحد - فأعيدت تسمية الميدان، وأزيل تمثال لينين منه، ووضع مكانه مجسم للكرة الأرضية، يتوسطه خارطة الجمهورية الأوزبكية. في الميدان ستة عشر عمودا من الرخام يصل بينها جسر، وعلى الجسر انتشرت مجسمات لعدد من طيور اللقلق رمزا إلى السلام والصفاء.

تمتد مسطحات خضراء، تتخللها ممرات للمشاة، تؤدي إلى النصب التذكاري. وتحت النصب التذكاري تمثال لامرأة تحمل طفلا بين ذراعيها ترمز إلى الوطن الأم.

وتنتصب غير بعيد عدد من المباني الحكومية، فإلى الجنوب من النصب التذكاري مباشرة مبنى مجلس الشيوخ الأوزبكي، ثم مبنى البرلمان، فمجلس الوزراء. وفي الجهة المقابلة ممر يؤدي إلى مبنى تذكاري يضم سجلا بأسماء الجنود الذين قتلوا دفاعا عن وطنهم أوزبكستان في الحرب العالمية الثانية.

والميدان اليوم هو المكان الرئيس للاحتفالات الوطنية، كيوم الاستقلال في الأول من سبتمبر، واحتفالات رأس السنة. وإذ ذاك يتزين الميدان بشجرة الميلاد طوال موسم الأعياد، ويمتلئ الميدان بالمواطنين الذين يقدمون لمشاهدة الفرق الموسيقية والعازفين والراقصين والأناشيد الوطنية والمهرجين ومقدمي الألعاب السحرية.

قناة أنكور

كنت قد مررت بهذه القناة يوم أمس لكني لم أتوقف في محيطها لأني عبرت الجسر الذي وجدته فوقها فقادني إلى ميدان الاستقلال, فقررت صباح اليوم قضاء بعض الوقت بين جنباتها. المكان مهيأ للمتنزهين الذين يعشقون الجمال الصامت، فيستمتعون بجريان الماء المتدفق كأنه اللجين وبأصوات العنادل فوق أغصان الأشجار المعمرة متجولين على الأقدام أو قابعين على الكراسي الخشبية التي توزعت أرجاء المكان على البساط

العشبي اليانع. لا يوجد باعة متجولون ولا مقاهي أو مطاعم، ولا تمر بالمكان وسائل المواصلات. إنه المكان المثالي للتأمل وللقراءة والكتابة..

حديقة غفور غلام

ويبدو أن اليوم هو يوم الطبيعة، فالجولة المسائية كانت إلى حديقة (غفور غلام) Gafur Gulyam Recreation Park لم أقرأ عن هذه الحديقة من قبل ولم يتحدث عنها أي من الأدلة الإلكترونية أو الورقية التي اطلعت عليها، لكني كلما فتحت هاتفي الجوال على خارطة طشقند وجدت مساحة خضراء تحتل الجزء الجنوبي الغربي من المدينة يتخللها مساحات زرقاء، وقد شجعني على زيارتها مجاورتها لإحدى محطات المترو.

اتخذت طريقي إلى هذه الحديقة بوساطة المترو فوجدتها حديقة عامة أهم ما يميزها بحيرة فيها مراكب للتأجير. وهي مناسبة لكل الأعمار، حتى كبار السن يجدون فيها ما يطلبون، ففيها مضمار للمشي وأجهزة لممارسة التمرينات الرياضية، وفيها ملاعب لتنس الطاولة والشطرنج وركوب الخيل، وهي من أجلهم تفتح أبوابها منذ الصباح الباكر.

متحف ضحايا الاضطهاد

لم يتبق من أيام الرحلة سوى اليوم، وقد تبقى معلمان لا بد من زيارتهما الأول هو متحف ضحايا الاضطهاد Museum of Victims of Repressions أو الصفحة الحزينة في تاريخ أوزبكستان.

افتتح هذا المتحف في 31 أغسطس 2002 ليكون شاهدا على القمع السياسي في الفترة الواقعة بين منتصف القرن التاسع العشر وحتى النصف الثاني من القرن العشرين.

في ستينيات القرن التاسع عشر شنت الإمبراطورية الروسية حربا استعمارية على آسيا الوسطى، وكان الغزاة يقمعون المكافحين من أجل

حرية أرضهم، المتطلعين إلى دولة مستقلة، وشهد نظام (ستالين) الفترة الأكثر دموية في تاريخ أوزبكستان فقد قُبض على عشرات الآلاف من الأشخاص وقُتل الآلاف، ومات مثلهم في المخيمات.

يحتوي هذا المعرض على صور فوتوغرافية ووثائق وممتلكات شخصية كلها شواهد على القمع. ومن بين المعروضات معسكرات الاعتقال والسجون التي يعيش فيها السجناء، وواحدة من أسوأ رموز القمع وهي (عربة السجن)؛ السيارة التي يحمل فيها المتهمون.

يقع المتحف مقابل برج تليفزيون طشقند. وقد اختير المكان بعد أن كشفت أعمال الحفر لبناء البرج عن مقابر جماعية هناك.

متحف أمير تيمور

ومن متحف إلى متحف.. إلى متحف (الأمير تيمور) Amir Temur Museum الواقع قبالة حديقة أمير تيمور وتمثاله، والمميز بشكله الدائري وبقبته الزرقاء ومبانيه الجميلة، وجدرانه المزخرفة..

افتتح المتحف في 18 أكتوبر 1996 وقد علق الرئيس السابق إسلام كريموف أثناء حفل الافتتاح على شكله الدائري بأنه "دائري كالخاتم الثمين في وسط العاصمة".

يضم المتحف حوالي خمسة آلاف قطعة أثرية، وآلاف الوثائق التي تستميت من أجل إثبات نسب تيمور، وتوثق وصوله إلى السلطة، وحملاته العسكرية، وعلاقاته الدبلوماسية والتجارية مع جيرانه، وتطويره العلوم ونشر التعليم. وهناك وثائق لسلالته على شكل خرائط وأسلحة ونقود معدنية وفضية ومنمنمات ومخطوطات نادرة وقطع فخار ومجوهرات.

يزور المتحف أكثر من مليوني زائر سنويا، وعدد من رجال الدولة الأجانب والوفود الرسمية. وكم تمنيت أن يضاف هذا المتحف إلى المتحف

الذي جئت منه قبل قليل؛ أعني متحف ضحايا الاضطهاد السياسي، وأن تعرض فيه صور أبشع جرائم عرفها التاريخ!

الغريب أنني وجدت من ضمن مقتنيات متحف تيمور كتاب (المسلمون في الاتحاد السوفييتي عبر التاريخ) للدكتور محمد علي البار الذي يتحدث فيه مؤلفه عن فظائع الاتحاد السوفييتي في الشعوب التي احتلوها، وأظنه وضع هنا خطأ، فمكانه الصحيح هو متحف ضحايا اضطهاد الاتحاد السوفييتي..

مسك الختام قصيدة

في المساء كان لا بد من ختام الرحلة بزيارة لأجمل ما سيعلق في ذاكرتي من هذه المدينة أعني الـ (برودوي) Broadway.. أمضيت وقتا جميلا في المكان قبل أن أعود إلى سكني وأحزم أمتعتي استعدادا لرحلة العودة صباح الغد. وعندها فقط بدأت أراجع القصيدة التي كتبتها بعنوان (طشقند):

بيـن المـروج يَحُفُّـها الوردُ فتّـانة إنْ تـدنُ أو تَغْـدُ

وعلى الغصونِ عنادلٌ أخذتْ من فرطِ بهجتِها بها تشدو

والعشبُ مسـرورٌ لخطـوتِها مـن فوقِـهِ فيكـادُ يمتـدُّ

وتُبعثـرُ النسـماتُ غُرَّتَـها فيضوعُ منها المسكُ والنَّدُّ

فاجـأْتُها بتحيَّتـي فبـَدَتْ مشدوهةً وتَضَـرَّجَ الخـدُّ

وظَلَلـتُ لحظـاتٍ أراقبُـها مـن قبلِ أن وافانـيَ الـردُّ:

أهلا وسـهلا زدتَنا شـرفًا فلكَ السـلامُ الجـمُّ والـوُدُّ

فسألتُها: من أنتِ سـيدتي؟ مِن أينَ هذا الرونقُ الفرْدُ؟

هـذا بَهـاءٌ لا مثيـلَ لـــهُ الحســنُ هـذا مـا لـهُ نِـدُّ

قالت أحقًّا أنــتَ تجهلُني؟ إنّي بـلادُ الشـاشِ (طشقندُ)

تاريخُ هذا الكونِ يعرفُني عنوانـــيَ الإقــدامُ والجِـــدُّ

كمْ سـرَّنا إذ جـاء قائدُكمْ الباهـــليُّ قُتيبـــةُ الجَـــلْدُ

وافَــي إلينا تحتَ إمـرَتِهِ جُندٌ أشـاوسُ ما لـهمْ عَــدُّ

جاؤوا إليـنا في معيّتِـهِمْ الديـنُ والأخـــلاقُ والرُّشـدُ

ما كان مِنا غيرُ طاعتِهمْ فانصــاعَ مِنــا للهـدى حَشـدُ

وأعـزَّنا المولى بطاعتِهِ وبدينــهِ فتضــاعفَ المجـــدُ

***

طشقندُ يا أحلى البـلادِ لَكُمْ فـي قلـبِ كـلِّ مُوَحِّـدٍ وُدُّ

شـهِدتْ لكـمْ أعـلامُ أمتـنا بحضــارةٍ أنتـم لهـا مَهـدُ

حدثْتِني عن أعصُرٍ غَبَرَتْ ماذا جـرى لمَّا نأَى العهدُ؟

لما غزا (جنكيزُ) أرضَـكمُ واجتاحَها (هولاكو) مِن بَعْدُ

حتــى إذا (تيمورُ) باغتكمْ فـإذا البـلادُ بلاقِــعٌ جُــرْدُ

فتَضَرَّجَتْ أوداجُها غَضَبًا ثـم انْبَـرَتْ وكأنــها الرعدُ

قالت: أجئتَ لتستخِفَّ بنا؟ ورجـالِنا .. أولئـك الأُسـدُ؟

وبرمزِنا (تيمـورَ) قائدِنا؟ وبِـهِ جُمـوعُ الشـعبِ تَعْتَدُّ

قضّى الحياةَ مجاهدًا بطلًا ما ارتاحَ حتى ضَـمَّهُ اللَّحْدُ

من بعد أن دانـتْ لدولتهِ الصيـنُ والأنَضـولُ والهنـد

***

مهلًا أيا طشـقندُ لا تَدَعِي حُجَـجَ العِدا والغيـظِ تشـتدُّ

تاريخُ دولتِـكمْ كمَا لُجَـجٍ تمتـدُّ طَـوْرًا .. ثـمَّ تَرْتَـدُّ

كـلٌّ لـهُ مـاضٍ يتيهُ بـهِ لكـنَّ حاضـرَنا هو القصـدُ

أُعجبتُ إذ أبصرتُ أيديكمْ لحَواضِـرِ الإسـلامِ تمتـدُّ

فتهيئِـي لدخـولِ معركـةٍ أهدافُـها العيشُ الهنِي الرغدُ

وسـلاحُها علـمٌ وتقنيـةٌ والفنُّ والأدبُ السـنِي الجنـدُ

بلدَ الجمالَ الغضِّ دام لكمْ الأمـنُ والنعمـاءُ والسـعدُ

***

تعريف بالمؤلف

سعد بن عبد الله الغريبي : كاتب وشاعر سعودي

- ماجستير في علم اللغة التطبيقي في مجال تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض 1985 بتقدير جيد جدا.
- بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها والتربية - جامعة أم القرى 1974 بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى.
- عمل في التدريس والإدارة المدرسية والإشراف التربوي في وزارة التربية (1974-1993)، ثم في المؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني مشرفا عاما لمادة اللغة العربية ومديرا لإدارة الأبحاث والمناهج (1993 - 1997)
- أعيرت خدماته لمدة ثلاث سنوات رئيسا لوحدة المطبوعات والنشر بمكتب التربية العربي لدول الخليج (1984 – 1987)
- تقاعد تقاعدا مبكرا وعمل في القطاع الخاص مديرا للموارد البشرية منذ عام 1997 إلى عام 2004 في مدارس الملك فيصل ثم في شركة (نادك).
- مستشار بمكتب معالي محافظ المؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني لمدة عام حتى 2013/3/20.
- مسؤول النشر في مجموعة مبين للعلاقات العامة 1992-1996
- محرر في موسوعة الثقافة الشعبية - مؤسسة الدائرة للإنتاج الإعلام 1996-1998 (صدرت الموسوعة سنة 1420 في 12 مجلدا)
- له مشاركات متعددة في القنوات الإذاعية والتلفازية وفي الصحف والمجلات في إطار اهتماماته اللغوية والأدبية والتربوية والاجتماعية.
- كاتب أسبوعي في صحيفة الجزيرة ومجلة فرقد الإبداعية.
- شارك في العديد من مهرجانات الشعر والأمسيات الشعرية في كل من السعودية ولبنان والأردن ومصر وتونس والمغرب والسودان.
- ترجم له معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، ودليل الأدباء بدول

مجلس التعاون الخليجي، وكتاب (شعراء السعودية) إعداد براءة الشامي وكتاب (شعراء من الطائف) إعداد عبدالله بن سعد السبيعي.
- كتب عن إنتاجه الشعري والنثري العديد من النقاد من أبرزهم الأستاذ سعد البواردي والأستاذ حمد الرشيدي والأستاذ بدر الخريف والأستاذ محمد معاطي.
- حصل الدكتور طامي دغيليب الشمراني من الجامعة الأردنية على شهادة الدكتوراة وكان عنوان أطروحته: "جماليات الأسلوب لدى الشاعر سعد الغريبي".
- عضو النادي الأدبي بالرياض.
- عضو الجمعية الوطنية للمتقاعدين بالرياض.
- عضو مؤسسة الكرمة للتنمية الثقافية والاجتماعية - القاهرة
- عضو شرف رابطة إبداع العالم العربي والمهجر - باريس
- عضو الاتحاد العالمي للشعراء

مؤلفاته المطبوعة:

في اللغة العربية:

1- الأصوات العربية وتدريسها لغير الناطقين بها من الراشدين – مكتبة الطالب الجامعي بمكة المكرمة 1985.
2- مقررات اللغة العربية للمعاهد الثانوية التابعة للمؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني بالمملكة العربية السعودية (تسعة مقررات) - مؤلف مشارك 1997-1999

في الأدب:

1- شاعر هذيل والمتحدث الرسمي باسم القبيلة – دراسة لسيرة أبي ذؤيب الهذلي من خلال شعره - دار مبين للنشر والتوزيع - الرياض 1994
2- لكل شاعر حكاية - ملامح من حياة عدد من الشعراء على مر العصور - دار الرمك للنشر - جدة 2012

3- نزهة في شواطئ الإبداع - مطالعات في بعض الإصدارات الحديثة - مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر - القاهرة 2020

الدواوين الشعرية:

1- مداد من غيوم - دار الرمك للنشر - جدة 2012
2- أيقونة شعري - دار الرمك للنشر - جدة 2013
3- شمس تأذَّن بالرحيل - نادي الطائف الأدبي ومؤسسة الانتشار العربي - بيروت 2014
4- الغصن الندي - مجموعة قصائد ترجمها للإنجليزية الشاعر والمترجم نزار سرطاوي صدرت عن رابطة الكتاب الأردنيين بعنوان The Bedewed Bough 2014
5- كأن شيئا لم يكن - قلم الخيّال للنشر والتوزيع - الرياض 2016
6- سيسأل الليل عنها - دار السكرية للنشر والتوزيع - القاهرة 2018

في الخواطر:

1- حديث الشفق - نادي القصيم الأدبي ومؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر - القاهرة 2013
2- طعم الورد - توقيعات معاصرة - نادي أبها الأدبي ومؤسسة الانتشار العربي 2019

في أدب الرحلة:

1- من سحر المشرق وفن المغرب - نادي الرياض الأدبي والمركز العربي الثقافي - بيروت والدار البيضاء 2014
2- بكالوريوس تربية يمنية - نادي الأحساء الأدبي 2017.

في الرواية:

1- أحجار في قارعة الطريق - مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

- القاهرة 2015
2- وطن الحب - قلم الخيّال للنشر والتوزيع - الرياض 2019

في هذا الكتاب عرض الكاتب ثلاث رحلات بتواريخ متباينة. أما الرحلة الأولى فكانت إلى سيرلانكا عام 2008، بهدف الاستكشاف والاستطلاع أكثر منها للاستجمام، إضافة إلى سحر سيرلانكا وجمالها. والرحلة الثانية التي يضمها هذا الكتاب كانت لفيتنام في عام 2013 والتي يراها الكاتب أنموذجاً لإصرار الشعب على الحياة؛ فضلاً عن أنها ما زالت بكراً على السائح العربي والسعودي خاصة. أما الجزء الثالث فيعرض رحلة إلى أوزبكستان عام 2018 ذلك البلد المسلم الذي خرج منه البخاري وابن سينا والترمذي والبيروني.. وغيرهم.